

الاعلام من الأدباء والشعراء



عَبْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ الْأَسَدِيُّ
أَخْبَارُهُ وَأَشْعَارُهُ

إعداد

د. مفيد محمد قبيصة

دكتوراه دولة في اللغة العربية وآدابها

أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الاعلام من الادباء والشعراء

عَبِيدُ بَرِّ الْأَرْضِ الْأَسَدِي

أَخْبَارُهُ وَأَشْعَارُهُ

إعداد

د. مفيد محمد قبيصة

دكتوراه دولة في اللغة العربية وآدابها

أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية

شبكة كتب الشيعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

مطابع: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان
رقم: ١١/٩٤٢٤ : ملكس : Nasher 41245 LE
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نبينا محمد، وعلى آل بيته وصحبه أجمعين، وبعد.

فإن الشعراء في الجاهلية أكثر من أن يدركهم متبع أو أن يحصي عددهم منقر، ففي كل قبيلة شعراء كثر، منهم المقل والمكثر والمشهور والحامل الذكر، والشاعر والشويعر، حتى أن أكثر العرب في رأي بعض النقاد كانوا قادرين على النظم، لأن قدرتهم الكبيرة على التذوق تفترض وجود ملكات شعرية مهيأة لاستقبال الشعر واستيعاب أبعاده، وإدراك فنونه ومناحيه، وهذا ما سمح للشعر في أن يشيع ذلك الشيوع الذي عمر القلوب وأطرب الأسماع وأغنى البيان.

وعبيد بن الأبرص، واحد من أولئك الشعراء الجاهليين الذين برزوا في عالم الشعر، وخلفوا لنا تراثاً شعرياً لا نستطيع أن نحكم عليه من حيث القلة أو الكثرة، لأن الذي وصلنا منه ربما لا يمثل كل أشعاره، فالذاكرة التي وعت ذلك الشعر وحملته حتى عصور التدوين المتأخرة نسبياً يمكن أن تكون قد نسيت الكثير، وأسقطت عبر الزمن عدداً من القصائد، ولذا

فإنَّ حكمنا قد انصبَّ على ما نسب إلى عبید من شعرٍ ضمَّه ديوانه، فقد عرضنا في بحثنا إلى عددٍ من قصائده وبيَّنا أغراضها وصورها، وأشرنا إلى ممیزاتها وخصائصها، فالفينا فيها الشعر الجاهليَّ بكلِّ مفاهيمه ومعايره، كما ألفينا فيها أيضاً المشاعر الذاتية والرؤى الخاصة والتجارب المميزة التي وسمت شعر عبید بطابع الحكمة وسعة الخبرة وغنى التجربة.

وبعد. فإننا لم نأل جهداً في تقديم عبید شاعراً وإنساناً، ونرجو أن ينال ذلك الجهد الرضا والقبول، وبالله المستعان ومنه السَّداد والتوفيق.

د. مفید قمیحة

بسم الله الرحمن الرحيم

العصر الجاهلي

معارفه وأدابه

الجهل في اللغة نقيض العلم والمعرفة كما أجمعت على ذلك كل المصادر اللغوية، إلا أن له معانٍ أخرى يمكن أن نستشفها عند تعمقنا في مسارب اللغة، فقد جاء في اللسان نقلاً عن ابن عباس أنه قال: من استجهل مؤمناً فعليه إثم، قال ابن المبارك: يريد بقوله: من استجهل مؤمناً، أي حله على شيء ليس من خلقه^(١) ويؤكد هذا المعنى قول النابغة: ^(٢)

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل

وكيف تصابي المرء والشيب شامل

فاستجهلتك هنا: بمعنى استخفتك، أي حملتك على أن تفعل ما ليس من خلقك وعاداتك، وتقوم بأفعالٍ وحركاتٍ تسيء إلى منزلتك، وتتنافى مع وقارك وصفاتك، والجاهلية التي

(١) اللسان - مادة جهل .

(٢) ديوان النابغة ص ٨٧ دار صادر .

هي من الجهل في الاشتقاق اللغوي، كلمة تطلق على الفترة الزمنية التي سبقت ظهور الإسلام، وقد ورد ذكرها مراراً في القرآن الكريم كنقيض لكلمة «إسلام» وما تعنيه من شرائع وأعراف وسلوك، فقال عزّ من قائل: «أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون»^(١) وقال أيضاً: «وقرن في بيوتكنّ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى»^(٢) وقال كذلك: «إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية»^(٣) فهذه الآيات تظهر أنّ الجاهلية تعني مفاهيم وأفعالاً كانت سائدة قبل الإسلام وهي في مجملها تحمل مغايرة واضحة لما تعنيه كلمة إسلام من خضوع لله، وطاعة لأوامره وامتنال لأحكامه، وابتعاد عن كلّ ما يشين السلوك والقيم والأخلاق الفاضلة.

وجاء في الحديث الشريف الموجه إلى أحد الصحابة الأجلّاء بعد سلوكه مسلكاً يتنافى مع الأخلاق الإسلامية وتعاليمها: «إنك امرؤ فيك جاهلية» أي فيك حال من الأحوال التي كانت سائدة قبل الإسلام، كالمفاخرة بالاحساب والأنساب، والتجبر، والتكبر والجهل بالشرائع الإلهية.

فالجاهلية بهذه المعاني التي أشرنا إليها ليست مشتقة من الجهل الذي هو نقيض للعلم والمعرفة، بل من الجهل الذي هو

(١) سورة المائدة الآية ٥٠.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٣.

(٣) سورة الفتح الآية ٢٦.

بمعنى الضلال والطيش والتزق والتعصب والغضب، أو بمعنى السلوك المغاير لما يأمر به الإسلام، وتحت عليه شرائعه وتعاليمه، فالعصر الجاهلي إذاً هو العصر الذي سبق ظهور الإسلام تحديداً، وهو عصر زاخرٌ بكثير من المعارف والعلوم والعادات «ويكفيك ما أثر عنه من شعرٍ بليغ، لتدفع عنه ذلك المعنى المناقض للعلم، ولتعرض عما يساورك من شكٍ في أمر جهله وغبائه، فإذا ما عدت إلى المصادر التي تتحدث عنه، فإنك ستجد فيها حديثاً مطوّلاً عن كثير من العلوم والمعارف التي كانت سائدة بين أبنائه، وستجد أن العرب في تلك الحقبة من الزمن، لم يكونوا في عزلةٍ تامةٍ عن الأمم المجاورة، بل كانوا على اتصالٍ اقتصاديٍّ وحضاريٍّ وسياسيٍّ بها، وخاصة مع الفرس والروم عبر إمارتي ملوك الحيرة وغسان، إلا أن الاتصال بهاتين الدولتين لم يكن قوياً وفاعلاً، بل كان اتصالاً تفرضه الظروف الحياتية والاقتصادية عليهما، وهم بالتالي لم يتأثروا كلٌّ التأثير بما كان يسود هاتين الأمتين من مفاهيم حضارية وثقافية وعلمية، فقد كان العرب يأخذون من هذه الأمم ما يوافق عقليتهم وأمزجتهم وتقاليدهم، لأن تعصبهم لأعراقهم وقيمهم وتقاليدهم وإحساسهم المتعالي بالذات، فرض عليهم عدم الانجرار والانسياق مع القوى المجاورة،

(١) راجع شوقي ضيف - العصر الجاهلي ص ٣٩.

وحافظ بالتالي على الطابع المميز لوجودهم وجعلهم في منأى عن الانصهار والذوبان في كيانات الغير.

ولقد عرف العرب في صحرائهم كثيراً من العلوم والمعارف، ولعل أهمها ما عرف عنهم من علم بالأنساب والأيام، وما ينطوي في ذلك من المناقب والمثالب، ويتحدث الجاحظ عن معارف العرب المتعددة التي استطاعوا إتقانها عن طريق التبصر والتأمل الطويل في الظواهر والأشياء، والمراقبة الجادة لهما، تلك المراقبة التي فرضتها عليهم طبيعة حياتهم، وضرورة احتياجاتهم والحاجة كما يقول المثل: أم الاختراع، فتكون لهم من جرّاء ذلك خبرات واسعة وعلوم أولية مبنية على الملاحظة الدقيقة التي تمثل بداية الطريق للوصول إلى الحقائق العامة الثابتة، فيقول: فخرجت بهم الحاجة إلى تعرّف حال الجاني والجرح والقاتل، وحال المجني عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطلب والهرب، وكيف الداء والدواء، لطول الحاجة، ولطول وقوع البصر، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء، ومن هذه الجهة عرفوا الآثار في الأرض والرمل^(١) وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء، لأن كل من كان بالصحاصح الأمالس^(٢) حيث لا أمانة ولا هادي، مع حاجته

(١) أي علم القياقة، وهو الاهتداء بالآثر.

(٢) الصحاصح: الأرض الواسعة، والأمالس أو الأماليس كما وردت في بعض النسخ: الأرض التي ليس فيها ماء ولا شجر.

إلى بعد المشقة، مضطراً إلى التماس ما ينجيهِ ويؤديه^(١) ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجذب، وضنه بالحياة، اضطرتته الحال إلى تعرّف شأن الغيث، ولأنه في كلّ حال يرى السماء وما يجري فيها من كواكب، ويرى التعاقب بينها، والنجوم الثابت فيها، وما يصير منها مجتمعاً، وما يصير مفترقاً، وما يصير منها فardاً^(٢) وما يكون منها راجعاً ومستقيماً، وسئلت أعرابية فقيلاً لها: أتعرفين النجوم؟ فقالت: سبحان الله، أما أعرف أشباحاً وقوفاً عليّ كلّ ليلة، وقال اليعقوبي: وصفت أعرابية لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء، ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس، فقال قائلٌ لشيخ عبادي، كان حاضراً: أما ترى هذه الأعرابية تعرف من النجوم ما لا نعرف، قال: ويل أمك؟ من لا يعرف أجزاء بيته^(٣) وكذلك كانوا على معرفة بالطبّ، فقد فرضت عليهم الحاجة أن يركنوا إلى التجربة للتخلص من بعض الأدوية والأمراض، فجربوا الكي واللسع بالنار، واستفادوا من النباتات المنتشرة في بيئتهم فصنعوا منها الأدوية والعقاقير، وكذلك كانوا يتداوون بالرقي والعزائم، مثلهم في ذلك مثل جميع أهل البادية، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدّمته فقال: «وللبادية من أهل العمران

(١) يؤديه: يعينه.

(٢) فardاً: أي منفرداً عن غيره.

(٣) الحيوان - الجزء السادس ص ٣٦٩ - ٣٧٠ دار الفلال.

طَبُّ يَبْنُونَهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ عَلَى تَجْرِبَةٍ قَاصِرَةٍ عَلَى بَعْضِ
الْأَشْخَاصِ، مُتَوَارِثًا عَنْ مَشَايِخِ الْحَيِّ وَعَجَائِزِهِ، وَرَبَّمَا يَصْخُ
مِنْهُ الْبَعْضُ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى قَانُونٍ طَبِيعِيٍّ، وَلَا عَلَى مُوَافَقَةِ
الْمَزَاجِ، وَكَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ هَذَا الطَّبِّ كَثِيرٌ، وَكَانَ فِيهِمْ
أَطْبَاءٌ مَعْرُوفُونَ كَالْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَغَيْرِهِ^(١) وَكَذَلِكَ شَاعَتْ
عِنْدَهُمُ الْعِيَاقَةُ، وَهِيَ التَّنْبُؤُ عَنْ طَرِيقِ مَلَاخِظَةِ الطَّيُورِ حَيْثُ
كَانُوا يَتَيَّامُنُونَ مِنْهَا أَوْ يَتَشَاءُمُونَ، وَلَهُمْ فِي الْقَالِ وَالطَّيْرَةِ
أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ، يَقُولُ الْجَاخِظُ: وَأَصْلُ التَّطْيِيرِ، إِنَّمَا كَانَ مِنَ
الطَّيْرِ مِنْ جِهَةِ الطَّيْرِ إِذَا مَرَّ بَارِحًا وَسَانِحًا أَوْ رَأَاهُ يَتَفَلَّى وَيَنْتَفِئُ،
حَتَّى صَارُوا إِذَا عَايَنُوا الْأَعْوَرِ مِنَ النَّاسِ أَوْ الْبَهَائِمِ، أَوْ
الْأَعْصَبِ أَوْ الْأَبْتَرِ، زَجَرُوا عِنْدَ ذَلِكَ، وَتَطْيَرُوا عَنْهَا، كَمَا
تَطْيَرُوا مِنَ الطَّيْرِ إِذَا رَأَوْهَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَكَانَ زَجْرُ الطَّيْرِ هُوَ
الْأَصْلُ، وَمِنْهُ اسْتَقْوَا التَّطْيِيرَ، ثُمَّ اسْتَعْمَلُوا ذَلِكَ فِي كُلِّ
شَيْءٍ... وَلِلطَّيْرِ سَمَتْ الْعَرَبُ الْمَنْهَوْشَ بِالسَّلِيمِ، وَالْبَرِيَّةَ
بِالْمُقَازَةِ، وَكُنُوا الْأَعْمَى أَبَا بَصِيرٍ، وَالْأَسْوَدَ أَبَا الْبَيْضَاءِ، وَسَمُّوا
الْغُرَابَ بِحَاتِمٍ، إِذْ كَانَ يَحْتَمِ الزَّجْرُ بِهِ عَلَى الْأُمُورِ...،
وَالْغُرَابُ كَثِيرُ الْمَعَانِي فِي هَذَا الْبَابِ، فَهُوَ الْمَقْدَمُ فِي الشُّؤْمِ^(٢)
وَقَادَهُمْ إِيْمَانُهُمُ بِالطَّيْرِ إِلَى الْاسْتَقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ وَالْقِدَاحِ وَهِيَ

(١) الْمُقَدِّمَةُ: ص ٣٠٩ - دَارُ الْمَلَالِ.

(٢) الْحَيَوَانُ ص ٥٠٩ - ٥١٠ ج ٧.

سهام كانوا يكتبون عليها عبارات يصدرّون عنها مثل الأمر والنهي والترتب، وهي غير أزلام القمار وقداحه^(١).

أمّا العلوم العقلية فقد كانت ضعيفة لديهم، نظراً لرحيلهم المستمر وتنقلهم الدائم وراء مساقط الغيث ومواضع الكلال، فالعلوم العقلية تتطلّب استقراراً وثباتاً، وهم قوم لم يعرفوا الثبات والاستقرار قط، فطبيعة حياتهم فرضت عليهم التنقل، كما فرضت عليهم سرعة التحرك، وهذا مما لا يتناسب مع طبيعة العمل العقلي الذي يتطلّب التأني والتأمل الطويل في الوجود والظواهر، كما يتطلب ربطاً وثيقاً بين العلة والمعلول أو السبب والمسبّب، ولذا كانت لمحاتهم العقلية والفلسفية خاطفة وعابرة، مع طبيعة وجودهم وظروفهم، ولذلك فقد شاعت عندهم الحكمة كما كثرت الأمثال التي هي في نظرنا وليدة التجارب والملاحظات والخبرات المتأتية من رؤية الأشياء وتدبر أحوالها وتبصر حركاتها ونتائجها، والمتصفح للمصادر الأدبية والتاريخية واللغوية يرى سيلاً من الحكم والأمثال عندهم، فقد وضعت في ذلك الكتب الضخمة من أشهرها، جمهرة الأمثال «للعسكري» وجمع الأمثال «للميداني»، وظهر عندهم كثير من الحكماء والعلماء والخطباء والوعاظ الذين اكتظت بذكر أسمائهم وأقوالهم الكتب، حيث لم يتركوا شأناً من شؤون الحياة والنظر

(١) شوفي ضيف العصر الجاهلي ص ٨٥.

في الوجود والاشياء إلا وأبدوا رأيهم فيه ملمين وموجزين في آن واحد، لأن عقليتهم كما ذكرنا جعلتهم يكتفون باللمحة الخاطفة والاشارة الدالة، بحيث لم يكونوا قادرين على الوقوف والتريث للتفصيل والإبانة والولوج إلى حقائق الاشياء وجوهرها الاصيل، أما أهم ما عرف عنهم في نظرنا وهو الذي أثّرنا أن نجعله خاتمة حديثنا عن معارفهم وعلومهم فهو تلك اللغة وذلك الشعر الذي كان العامل الرئيس على توحيدها وجعلها اللغة الأدبية الوحيدة التي سادت الجزيرة العربية بأكملها رغم اختلاف قبائلها ولهجاتها^(١) فلقد تطوّرت تلك اللغة إلى الحدّ الذي جعلها قادرة على أن تثبت في وجه الزمن، وتقاوم بصلاية وجدارة كلّ اللغات المجاورة، وقد توجّ فضل تلك اللغة وثبت أركانها وأظهر عظمتها واكتماها نزول القرآن الكريم بها، وهو الكتاب الذي أعجز البلغاء في كلّ عصر وزمان، ونزول القرآن الكريم بهذه اللغة يعني قدرتها العظيمة على الايصال والبيان، ولذلك نرى العرب قبل الإسلام كانوا ممن يتأثرون بالكلمة ويعجبون ببلاغتها، ويعرفون فضلها وقيمتها وبيانها حتى قال الرسول وهو سيّد البلغاء، فيها: «إنّ من البيان لسحراً، وإنّ من الشعر لحكمة»^(٢).

ويذكر الجاحظ لغة العرب ومنطقهم فيقول: وكلّ شيء

(١) راجع كارلونيئو - تاريخ الآداب العربية ص ٩٤.

(٢) راجع العمدة ج أول ص ٢٠.

للعرب فإنما هو بديهة وارتهال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف همه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتثال عليه الألفاظ انشالاً، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحداً من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلمون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، أو يحتاجوا إلى تدارس... ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز أو من المثور والاسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرواق العجيب، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول في مثل ذلك إلا في اليسير والنبد القليل»^(١).

وهكذا فقد تملك اللغة من نفوس أولئك القوم

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣- دار الكتب العلمية.

وعقولهم، فملكوا ناحيتها، ودانت لهم طائفة متطورة قادرة على التعبير عن كلِّ الاحتياجات النفسية والشعورية، فكان لهم من ذلك الأدب الرفيع والبيان الساحر، والمثل الرفيع والحكمة البالغة، يذهبون بها إلى حيث يشاءون من فنون القول، فيصوّرون الأشياء بإيجاز ودقة، ويحيطون بالموضوع في بلاغة من النظم والصياغة، وعميق من البيان وقليل من اللفظ، وحسبك دليلاً على ذلك الشعر والخطابة وهما أعظم ما أثر عن ذلك العصر من فضل، فقد بلغا من الرقي والتطور حدّاً جعل الكثير من النقاد والأدباء في مختلف العصور يعجبون بهما ويشنون على ما جاء فيهما من صور رائعة وأساليب رفيعة، ويتناولونهما بالنقد والتحليل، مظهرين البلاغة والجمال، مقارنين لها مع غيرهما من آداب الأمم وما لها من فنون القول، وقد ذكرنا من قبل رأي الجاحظ الذي يصوّر أدب العرب بأنه أدب الفطرة والسجية والبديهة الذي ينطلق على ألسنتهم بعفوية وطلاقة، مغبراً عن كلِّ الاحتياجات والأغراض دون ميلٍ منهم إلى التعقيد الذي يقطع الاتصال، ودون أن تظهر عليه علامات الكدِّ والاعياء اللذين يدلّان على الضعف والتحمل، يقول الرافعي عن أمة العرب وشعرها: «وهذه الأمة من أمم الفطرة، فليس لديها من أسباب التعلّم والأخذ عن الأمم الأخرى شيء، فلا بدّ أن يكون شعرها كمالاً في اللغة، فلم ينطقوا به حتى هذبت وصفّيت وصارت إلى المطاوعة في تصوير الاحساس

وتأديته على وجهه الأتم»^(١) ويشير الجاحظ إلى أن بعض الشعراء كانوا يحرصون على مراجعة أدبهم قبل إطلاقه وإذاعته صوناً له من الضعف وحرصاً عليه من الاهتمام أو الاستكراه، فيقول: «ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريئاً»^(٢) وزمناً طويلاً يردّد فيها نظره، ويقلب فيها رأيه، اتهاماً لعقله، وتتبعاً على نفسه فيجعل عقله ذماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، إشفافاً على أدبه، وإحرازاً لما خوله الله من نعمته»^(٣).

وليست هذه المراجعة التي يشير إليها الجاحظ مما يتنافى مع الفطرة الأدبية التي فطر عليها أولئك القوم، ولكنها من باب الحرص والاهتمام الشديدين بالكلمة التي كان لها المقام الأول عندهم، والمكانة الرفيعة لديهم، ثم هي بالتالي من باب التعظيم لها، ذلك التعظيم الذي يصونها من التكلف والسقوط، ويخلصها من الشوائب التي تسيء إلى قائلها وتحط من قدرهم ومكانتهم، فقد كان الشعر عندهم يحظى بالمنزلة السامية، وكان الشاعر اللسان المعبر عن أغراضهم وطموحاتهم، ولا بد لذلك اللسان من أن يكون الممثل الرفيع

(١) تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٢٢.

(٢) كريئاً: تاماً.

(٣) البيان والبيان ج ٢ ص ٤ - دار الكتب العلمية.

الذي يقوم بالواجب خير قيام، فيظهر المحاسن ويرد المساوىء
ويفعل في النفوس فعل الغيث في التربة الكريمة.

وتشير المصادر إلى أن الشعر قد غدا عند العرب «ديوان
علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون»^(١) كما غدا
سجلاً لتاريخهم وحافظاً لمآثرهم ومناقبهم من الاندثار
والضياع، يقول الجاحظ: «فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها
وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال،
وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك
على الشعر والكلام الموزون المقفى وكان ذلك ديوانها»^(٢) وقد
أشار الكثير من الصحابة إلى أهمية الشعر عند العرب، فذكر أن
عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كان الشعر علم قوم لم
يكن لهم علم أصح منه»^(٣) وقال علي بن أبي طالب رضي الله
عنه: «الشعر ميزان القول، ورواه بعضهم: الشعر ميزان
القوم»^(٤) وكان ابن عباس يقول: إذا قرأت من كتاب الله
فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان
العرب»^(٥) وأهمية الشعر هذه تتأتى من كونه قد تحول إلى

(١) طبقات الشعراء ص ٣٤.

(٢) الحيوان ج ١ ص ٤٩.

(٣) طبقات الشعراء ص ٣٤.

(٤) (٥) العمدة ج ١ ص ٢٠.

قوة، مؤثرة تفعل في النفوس فعل السحر فيها ، يقول رؤبة
قارناً الشعر بالسحر:

لقد خشيت أن تكون ساحراً
راوية مرّاً ومرّاً شاعراً^(١)

ويتحدث صاحب الجمهرة عما كانوا يسمونه «شيطان الشعر» وفي هذه التسمية ربط صريح بين الشعر والسحر وقواه الغيبية المؤثرة، فيقول على لسان شيخ حميري كان قد التقى بأحدهم في متاهات الصحراء: فسأله إن كان يروي شيئاً من أشعار العرب، فقال له نعم: سل عن أيها شئت، قلت - والكلام للشيخ - أنشدني للنابعة، قال: أنجب أن أنشدك من شعري أنا، قلت: نعم، فاندفع ينشد لامرئ القيس والنابعة وعبيد، ثم اندفع ينشد للأعشى، فقلت: لقد سمعت بهذا الشعر منذ زمن طويل، قال: للأعشى؟ قلت: نعم، قال: فأنا صاحبه قلت: فما اسمك؟ قال: مسحل السكران بن جندل، فعرفت أنه من الجن، فبت ليلة الله بها عليم، ثم قلت من أشعر العرب، قال: أرو قول لافظ بن لاحظ، وهيباب وهبيد، وهاذر بن ماهرة، قلت: هذه أسماء لا أعرفها، قال: أما لافظ فصاحب امرئ القيس، وأما هبيد فصاحب عبيد بن الأبرص

(١) الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٩ ص ١١٤.

وبشر^(١)، وأما هاذر فصاحب زياد الذبياني، وهو الذي استنبغه^(٢).

ولسنا ممن يؤمن يمثل هذه الروايات إلا أن في إيرادها هنا دلالة قوية على قدرة الشعر التأثيرية التي قاربت السحر في أنفسهم.

أما الخطابة فقد احتلت عندهم مكانة لا تقل في الأهمية عن الشعر، لكنها لم تستطع منافسته، لأنها تركز على العقل، والعرب قوم عاطفيون، والشعر كما نعلم وليد العواطف الشائنة والاحساسات المرهفة، وكذلك فهو يتميز عن الخطابة بالوزن والنغم والقافية، ولذا كان أقدر على مقاومة عوامل الفناء والضياع، وقد أفاض الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» وفي رده على الشعوبية خصوصاً، بذكر السنن والتقاليد المتبعة في الخطابة، وأورد كثيراً من الخطب والأسجاع والحكم والمواعظ التي تفوّ بها العرب، وذكر عدداً كبيراً من الخطباء الذين اشتهروا عند قبائلهم وفي أنحاء الجزيرة العربية كلّها، أمثال: أكم بن صيفي وقس بن ساعدة، وضمرة بن ضمرة، وعامر بن الضرب، وهاني بن قبيصة وزهير بن جناب وابن عمار وغيرهم من خطباء العرب وسادتها وحكائها، ويشير شوقي

(١) هو بشر بن أبي خازم الشاعر الجاهلي.

(٢) الجمهرة ص ١٨ - ١٩ دار المسيرة.

ضيف إلى خطباء العرب وكثرة خطبهم فيقول: «لإن من المحقق أنهم خطبوا كثيراً في أقوامهم وقبائلهم، وإلا ما اشتهروا بالبراعة في هذا اللون من ألوان اللسن والبيان، وكان مما بعثهم على إحسانه حاجتهم إليه في مواطن ومواقف عذّة، وكان قلماً يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته، وسجّة من سجاياء، حتى تساق له القلوب بأزمته، وتجمع له النفوس المختلفة من في أقطارها»^(١) وهكذا يتضح لنا أن العرب في جاهليتهم لم يكونوا في جهل تام وظلام دامس، فقد عرفوا كثيراً من العلوم والآداب والمعارف، وهي جميعها تنفي عنهم تلك التهمة التي تصمم بالجهل من هذه النواحي، وتحلّهم في المكانة الرفيعة بين الأمم والشعوب.

(١) العصر الجاهلي: ص ٤١٥.

عبيد بن الأبرص «حياته»

هو عبيد بن الأبرص بن حنتم^(١) وقيل بن جشم بن عامر بن مالك بن زهير بن مالك بن الحارثة بن ثعلبة بن دودان بن أسد^(٢) ويكنى أبا زياد، واسم أمه، أمامة^(٣) ولا تعرف سنة ولادته بالتحديد، كما أن المصادر لم تذكر شيئاً عن تفاصيل حياته، أو بالأحرى لم تتوسع في ذكرها، وكل الذي سطرته عنه قولها: إنه أحد الشعراء الجاهليين القدامى الذين عمروا طويلاً، حتى أن بعضهم زعم أنه قد عاش ثلاثمائة سنة^(٤) وفي ذلك نوع من المغالاة والتطرف، وإنما عبيد على ما يؤخذ من سياق آثاره لم يتجاوز المائة سنة^(٥) وفي أيامه تملك حجر بن الحارث، والد امرئ القيس الشاعر، على قومه بني

(١) راجع المعلقات المشر للزوزني: ص ٢٠٦ والأغانى ج ١٠ ص ٨٤ وتاريخ البيهقي ج ١ ص ٢٠٦.

(٢) راجع الشعر والشعراء ص ١٦١، وطبقات الشعراء ص ٥٨.

(٣) راجع الأغاني ج ١ ص ٨٢، وفهرس الاعلام للزركلي ج ٤.

(٤) العمدة ص ٧٨.

(٥) شعراء النصرانية ج ٢ ص ٦٢.

أسد، وكان عبيد مَن ينادم حجراً، إلا أنه تغَيَّر عليه بسبب سوء سلوكه وتغيَّره على قومه وظلمه لهم، فتَوَعَّدَه حجر في شيء بلغه عنه، ثم استصلحه فقال يخاطبه واعظاً مفتخراً^(١):

طاف الخيال علينا ليلة الوادي
لآل أسماء لم يلمم بميعاد^(٢)
أبلغ أبا كرب عني وأسرته
قولاً سيذهب غوراً بعد انجاء^(٣)
يا عمرو ما راح من قوم ولا ابتكروا
إلا وللموت في آثارهم حادي^(٤)
إذهب إليك فلني من بني أسد
أهل القباب وأهل الجرد والنادي^(٥)
قد أترك القرن مصفراً أنامله
كأن أثوابه تجت بفرصاد^(٦)

(١) ديوان عبيد ص ٦٢ - ٦٣ - دار صادر.

(٢) لم يلمم: مضارع ألم به، أي أنه وزاره.

(٣) أبو كرب: عمرو بن الحارث بن عمرو بن حجر أكل المرار، والغور: ما انحدر من الأرض واطمأن، والانجاء: الارتفاع، يريد أن قوله سيتشر في كل مكان.

(٤) الرواح والابتكار: العثية والصباح، والحادي: السائق.

(٥) أهل القباب: أهل السيادة، والجرد: الخيل. والنادي: المكان الذي يجتمعون فيه.

(٦) تجت: خضبت وصبغت، والفرصاد: التوت.

إلا أن حجراً أوقع بقومه بعد أن رفضوا دفع الاتاوة،
وقتلوا رسله، فأخذ سراهم وجعل يقتلهم بالعصا، فسَمَوْا
عبيد العصا، وقد ذكر ذلك امرؤ القيس في شعره^(١):

قولا لسدودان عبيد العصا
ما غرَّكم بالأسد الباسل
قد قرَّت العينان من مالكِ
ومن بني عمرو ومن كاهل^(٢)
حلَّت لي الخمر وكنت امراً
عن شربها في شغلٍ شاعل
فاليومَ أشرب غير مستحقبٍ
إثماً من الله ولاً واغل^(٣)
ولكنَّ عبيداً توسَّط لهم عند حجر، وأنشده مقالةً طلب
منه الاستماع إليها، فقال^(٤):

يا عين فابكي ما بني
أسد فهم أهل الندامة^(٥)

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٣٤ - دار الكتب العلمية.

(٢) قرَّت: سكنت واطمأنت، وبنو مالك وعمرو وكاهل: من بطون بني أسد.

(٣) غير مستحقب: أي غير حامل، والواغل: بمعنى الاثم.

(٤) ديوان ص ١٣٧.

(٥) ما بني أسد: ما زائدة.

أهل القباب الحمر والسن
عم المؤبّل والمدامة^(٩)
حلاً أبيت اللعن حلاً
إنّ فيما قلت آمة^(١٠)
في كلّ وادٍ بين يثرب
فالقصور إلى اليمامة
طريب عانٍ أو صياح عم
رقّ أو صوت هامة^(١١)
إما تركت تركت عف
وآ أو قتلت فلا ملامة
أنت المليك عليهم
وهم العبيد إلى القيامة
فرّق لهم قلب حجر حين سمع مقالته، وبعث في إثرهم
فأقبلوا، ولم يلبثوا يسيراً حتى ثاروا عليه وقتلوه، فجمع لهم
امرؤ القيس، وهذّدهم بفرسان قحطان وحمر، فأجابه عبيد
متهمكاً ومفتخراً^(١٢).

- (١) أهل القباب: أي أنهم سادة، والنعم: الإبل، والمؤبّل: المقتنى، والمدامة: الخمر.
(٢) حلاً: بكسر الحاء: ما يكفر به عن اليمين، وأبيت اللعن: أي أبيت أن
تأتي شيئاً تلعن عليه، وهي تحية الملوك في الجاهلية، وآمة: عيب.
(٣) العاني: الأسير، والهامة: اليوم، أو هي طائر يخرج من جسد القتيل،
يصيح مطالباً بالثأر كما كانوا يزعمون.
(٤) ديوانه ص ١٤١.

يَاذا المَعِيرَنَا بِقَتْلِ أَبِيهِ إِذْلاًلاً وَحِينَا
 أَزَعَمْتَ أَنْتَ كَدَّ قَتْلَتِ سَرَاتِنَا كَذِباً وَمِينَا^(١)
 هَلْلاً عَلَى حَجَرِ بْنِ أُمِّ قَطَامٍ تَبْكِي لَا عَلِينَا
 إِنَّا إِذَا عَضَّ الثَّقَافُ بِرَأْسِ صَعْدَتِنَا لَوِينَا^(٢)
 نَحْمِي حَقِيقَتِنَا وَبَعْضَ الْقَوْمِ يَسْقُطُ بَيْنَ بَيْنِنَا^(٣)

ويظهر أن حياة عبيد قد شابها كثير من الخلط والاضطراب، وهذا ما يمكننا أن نلاحظه من خلال الاختلاف على تعيين مدة الحياة التي عاشها، ثم في تلك الروايات التي ذكرت في سبب نظمه الشعر، فقد روي أن عبيداً كان في بداية حياته قليل المال محتاجاً له «فأقبل ذات يوم ومعه غنيمة له، ومعه أخته ماوية ليورد غنمه، فمنعه رجل من بني مالك بن ثعلبة، وجهه فانطلق حزيناً مهموماً لما صنع به المالكى، حتى أتى شجرات فاستظل هو وأخته تحتهن، فناما، فزعم أن المالكى نظر إليه نائماً وأخته إلى جنبه، فقال:

ذَاكَ عَبِيدٌ قَدْ أَصَابَ مَيًّا
 بَا لَيْتَهُ الْقَحْهَا صَبِيًّا
 فَحَمَلَتْ فَوَلَدَتْ ضَاوِيًّا^(٤)

(١) المين: الكذب.

(٢) الثقاف: آلة تقوم بها الرماح، والصعدة: الرمح، ولوينا: لعلها من لوى فلاناً حقه! أي جعده إيّاه.

(٣) الحقيقة: الذمار، ويسقط بين بين: أي يتساقط ضعيفاً لا يعتد به.

(٤) الضاوي: الهزيل.

فسمعه عبيد فساءه، فرفع يديه نحو السماء، فابتهل فقال: اللهم إن كان هذا ظلمي ورمائي بالبهتان، فأدلي منه^(١) ثم نام، ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر، فأثابه آت في المنام بكبة من شعر حتى ألقاها في فيه، ثم قال له: قم فقام وهو يرتجز ببني مالك وكان يقال لهم: بنو الزنية، فقال:

يا بني الزنية ما غرّكم
لكم الويل بسرّبال حُجّر^(٢)

ثم اندفع في قول الشعر، فقال معلقته^(٣).

كما أنّ الخلط والاضطراب قد الحقا أيضاً في بعض أخباره، فقد روي أنّ عبيداً خرج في ركب، فبينما هم يسرون، إذ بشجاع قد احترق جنباه من الرمضاء^(٤) فقال له بعض أصحابه: دونك الشجاع يا عبيد، فاقتله، قال عبيد: هو إلى غير القتل أحوج، فأخذ أداة من ماء فصّبها عليه، فانساب الشجاع ودخل حجره، وسار القوم فقفزوا حوائجهم، ثم أقبلوا حتى إذا صاروا إلى ذلك الموضع الذي فيه الشجاع، قال: فتأخّر عبيد لقضاء حوائجه فانفلت بكره،

(١) أدلي منه: أي قدرني عليه لأنال منه كما نال مني.

(٢) السرّبال: القميص، والحجر: ما لا يحل انتهاكه.

(٣) المعلقات السبع للزوزني ص ٢٠٦ - دار الثقافة.

(٤) الرمضاء: شدة الحر.

وقيل: بل حسر عليه^(١) فصار القوم وبقي عبيد متحيراً، فإذا بهاتف من عدوة الوادي^(٢) وهو يقول:

يا صاحب البكر المضلّ مركبه
دونك هذا البكر منّا فاركبه

ما دونه من ذي الرّشاد تصحبه
وبكرك الآخر أيضاً تجنبه

حتى إذا الليل تجلّى غيبه
فحطّ عنه رحله وسيّبه

إذا بدا الصبح ولاح كوكبه
وقد حمّدت عند ذاك مصحبه

قال: فالتقت عبيد ويكرّ إلى جنبه، فركبه حتى إذا صار
إلى دار قومه أرسل البكر وأنشأ يقول:

يا صاحب البكر قد أنقذت من بلد
يحار في حافتيها المدلج الهاوي

هلاً أبنت لنا بالحقّ نعرفه
من ذا الذي جاد بالمعروف بالوادي

إرجع حميداً فقد أبلغت مأمناً
بوركت من ذي سنامٍ رائحٍ غادي

(١) حسر: تعب وضعف.

(٢) عدوة الوادي: جانبه وشاطئه.

فأجابه هاتفٌ يقول:

أنا الشجاع الذي الفيته رمضاً
في رملةٍ ذات دكداكٍ وأعقاد^(١)
فجدت بالماء لما ضُنَّ حامله
جوداً عليّ ولم تبخل بإنجادي
هذا جزاؤك مني لا أمنٌ به
فارجع حميداً رعاك الله من غاد
الخيرُ يبقى وإن طال الزمان به
والشرُّ أخبث ما أوعيت من زاد^(٢)

ولم يقف الأمر عند هذا الشجاع، فذكر بعض الرواة أنَّ
لعبيدٍ شيطاناً يُسمَّى هبيد، كان يملئ عليه الشعر^(٣) «وقد حاول
بعضهم أن يرسل هذا المثل: لولا هبيد ما كان عبيد، وقد رووا
لهبيد هذا شعراً، وزعموا أنه أراد أن يلهم الشعر أناساً غير
عبيد فلم يوفق»^(٤) وهكذا فإنَّ الروايات التي تشبه الأساطير
ظَلَّتْ تلاحق الرجل حتى نهاية حياته، وأبت إلا أن تختمها
بحادثةٍ فيها الكثير من الغرابة والاستهجان، فقد ذُكر أنَّ
المنذر بن ماء السماء، جدَّ النعمان بن المنذر، كان يناديه رجلاً

(١) الدكداك: الأرض التي فيها غلظ، والأعقاد: ما تراكم من الرمل.

(٢) الجمهرة ص ٢٢، راجع كذلك الأغاني ج ١ ص ٨٦.

(٣) راجع الجمهرة ص ١٧ و ١٨.

(٤) طه حسين، في الشعر الجاهلي ص ٢٠٩.

من العرب، خالد بن المصلل، وعمرو بن مسعود الأسديان،
وهما اللذان عنهما الشاعر بقوله :

ألا بَكَر الناعي بخيري بني أسد
بعمرو بن مسعود وبالسيد الضمّد

فشرب ليلةً معهما، فراجعه الكلام فأغضباه، فأمر بهما
فقتلا، وجعلا في تابوتين، ودفنا بظاهر الكوفة، فلما أصبح
وصحا، سأل عنهما فأخبر بذلك، فقدم وركب حتى وقف
عليهما، فأمر ببيتان الغريين، وجعل لنفسه في كل سنة يومين،
يوم يؤس ويوم نعيم، فكان يضع سريره بينهما، فإذا كان في يوم
نعيمه، فأول من يطلع عليه وهو على سريره يعطيه مائة من إبل
الملوك، وأول من يطلع عليه في يوم يؤسه، يعطيه رأس
ظربان^(١) ويأمر به فيذبح، ويغرى بدمه الغريان، فلم يزل
كذلك ما شاء الله، فبينا هو ذات يوم من أيام يؤسه إذ طلع
عليه عبيد بن الأبرص، فقال له الملك: أو أجل قد بلغ إناه،
ثم قال يا عبيد: أنشدني، فقد كان يعجبني شعرك. فقال:
حال الجريض دون القريض وبلغ الحزام الطبيين^(٢) فقال
أنشدني:

(١) الظربان: حيوان في حجم القط، أغبر اللون مائل إلى السواد، ذو رائحة
ننتة.

(٢) الجريض: الغصة باللعب، والطيبيان: حلقات ضرع الناقة، ومعنى المثل
أن الأمر قد تفاقم وتعاظم.

أقفر من أهله ملحوب
فالقطيّات فالدّنوب

فقال:

أقفر من أهله عبيد
فاليوم لا يبدي ولا يعيد
عنّت له معنّة نكود
وحان له منها ورود

فقال: أنشدني هبلتك أمك، فقال: المنايا على الحوايا،
فقال بعض القوم: أنشد الملك هبلتك أمك، فقال: لا يرحل
رحلك من ليس معك، فقال له آخر: ما أشدّ جزعك من
الموت، فقال:

لا غرو من عيشة نافذة
وهل غير ما ميتة واحدة
فابلق بني وأعمامهم
بأنّ المنايا هي الراصدة
لها مدّة فنفس العباد
إليها وإن كرهت قاصدة
فلا تجزعوا لحمام دنا
فللموت ما تلد الوالدة
فقال له المنذر، لا بدّ من الموت، ولو عرض لي أبي في

هذا اليوم لم أجد بدءاً من ذبحه، فأما إذا كنت لها وكانت لك،
فاختر من ثلاث خصال، إن شئت من الأكحل، وإن شئت من
الأبجل، وإن شئت من الوريث، فقال: ثلاث خصال مقادها
شرّ مقاد، وحاديها شرّ حاد، ولا خير فيها لمرتاد، فإن كنت لا
بدّ قاتلي، فاسقني الخمر حتى إذا ذهلت لها ذواهلي، وماتت لها
مفاصلي، فشأنك وما تريد، فأمر المنذر له بحاجته من الخمر،
فلما أخذت منه وقرب ليذبح، أنشأ يقول:

وخيرني ذو البؤس في يوم بؤسه
خلالاً أرى في كلّها الموت قد برق
كما خيرت عبّاد من الدهر مرةً
سحائب ما فيها لذي خيرة أنق^(١)
سحائب ريح لم توكل ببلدة
فتركها إلّا كما ليلة الطلق^(٢)
وأمر به فقصده، فلما مات طلي بدمه الغريان^(٣).

تلك هي نبذة من سيرة عبيد التاريخيّة التي يظهر أنّ فنّ
القصص الخيالي قد تلاعب بها في كلّ مراحلها ووجهها الوجهة

(١) الأنق: الفرح والاعجاب بالشيء.

(٢) ليلة الطلق: ليلة وجع الولادة، وفتح اللّام ومنعاً للالتقاء الساكنين.

(٣) الأماني لأبي عليّ القالي ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠، كذلك راجع الشعر
والشعراء ص ١٦١، والأغاني ج ١٠ ص ٨٦ - ٨٧.

التي تنضح بالأوهام والمعتقدات الغربية، حتى بات من المستحيل على المتتبع لها أن يصل معها إلى رأيٍ راجح، لأن الخلط والاضطراب قد أسدلا ستاراً من الشك والغرابة حولها، ولقأها بظلمة يستحيل فيها تمييز الصحيح من الدّخيل.

أما سيرته الأدبية فهي قليلة في أيدي الرواة، ولم تذكر المصادر إلّا شيئاً يسيراً عنها، وقد أشار صاحب العمدة إلى ذلك فقال: وعبيد بن الأبرص قليل الشعر في أيدي الناس على قدم ذكره وعظيم شهرته^(١) ويبدو أنّ ابن رشيق القيرواني قد استأنس في رأيه هذا إلى رأي ابن سلام الجمحي الذي قال: وعبيد بن الأبرص قديمٌ عظيم الذكر عظيم الشهرة، وشعره مضطربٌ ذاهبٌ لا أعرف له إلّا قوله:

أقفر من أهله ملحوب
فالقطيّات فالذنوب
ولا أدري ما بعد ذلك^(٢).

وقرّنه ابن قتيبة في قلة الشعر إلى طرفة عندما قال عنه: وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد إلّا القليل^(٣). وهكذا يتّضح ممّا تقدّم أن شهرة الرجل لم تتأثّر له عن

(١) العمدة ج ١ ص ٧٨.

(٢) طبقات الشعراء ص ٥٨.

(٣) الشعر والشعراء ص ١٠٣.

طريق شعره، بل تأتت عن طريق تلك الروايات التي أنيطت
 بشخصه وأخباره الاسطورية، وذكره صاحب الأغاني فقال:
 هو شاعرٌ فحلُ فصيح من شعراء الجاهلية^(١) وكان يعدُّ فيها من
 شعراء الطبقة الأولى^(٢) أما ابن سلام فقد جعله في الطبقة
 الرابعة وذكره بعد طرفة وقرن بهما علقمة بن عبدة، وعدي بن
 زيد^(٣) إلا أن صاحب الجمهرة لم يذكره مع أصحاب المعلقات
 كما فعل غيره، وجعله واحداً من أصحاب المجمرات التي تلي
 المعلقات مكانةً ومقاماً^(٤).

وقد ذكره الشعراء فقال الخطيئة عندما سئل: من أشعر
 الناس؟ قال: الذي يقول:

من يسأل الناس يحرموه
 وسائل الله لا يخيب^(٥)

وذكره علماء اللغة والأخبار، فروي أن الأصمعي قال:
 قلت لأعرابي: أيُّ الناس أوصف للغيث، قال الذي يقول:
 يعني امرئ القيس:

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٨٤.

(٢) راجع جرجي زيدان: تاريخ أدب اللغة العربية ج ١ ص ١١٦.

(٣) طبقات الشعراء ص ٥٨.

(٤) راجع الجمهرة ص ١٠٠.

(٥) العقد الفريد ج ٦ ص ١٢٠.

ديمةً مُطْلَاءَ فِيهَا وَطْفُ
طَبَّقَ الْأَرْضِ تَجْرِي وَتَدْرُ
قلت فبعده من؟ قال: الذي يقول: يعني عبيد بن
الأبرص:

يا من لبرقي أبيت الليل أرقبه
في عارضٍ مكفهر المزن دلاح
دانٍ مسفٍّ فوق الأرض هيدبه
يكاد يدفعه من قام بالراح^(١)
ومما يُتمثل به من شعره قوله:

لأعرفنك بعد اليوم تندبني
وفي حياتي ما زودتني زادي^(٢)

ولعبيد شعرٌ منشورٌ في بطون الكتب، اختلفت رواياته
بعض الشيء، كما أنَّ له ديوان شعرٍ عثر على مخطوطته
المستشرق الانكليزي العلامة السر تشارلس ليال، فحققه
وطبعه وعلّق حواشيه، وألحق به في ملحق وذيل ما وجده
لعبيد من شعر في كتب العرب، ونقله إلى الانكليزية، ومهره
بفهارس متعدّدة كلّها جزيل الفائدة^(٣) كما أعاد تحقيقه الدكتور

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٥٣.

(٢) راجع ديوان عبيد ص ٦٣.

(٣) ديوان عبيد - المقدّمة ص ١٥ - ١٦ دار صادر.

حسين نصار معتمداً على نسخة ليال Lyal ومضيفاً إليها بعض القصائد التي وجدها منسوبة إليه في بطون الكتب^(١).

وقد قامت بطبع ديوانه كثيرٌ من دور النشر وأخرجته بحللٍ جديدة وشروح مستفيضة معتمدة على التحقيقين السابقين.

تلك هي نبذة من سيرته الأدبية كما جاءت في المصادر والمراجع على لسان الأدباء والعلماء، أما سيرته الشخصية فلم تشر المصادر إلى ما يوضح أي جانب منها، وكلُّ الذي ذكرته عنها قولها: إنه كان من شعراء الجاهلية المعمرين، وأنه قديم الذكر عظيم الشهرة، وألحقت به كثيراً من الخرافات والأقاويل، إلا أننا من خلال اطلاعنا على ما نسب إليه من شعر تمكنا ولو بشكلٍ يسير أن نستشف بعض ملامح تلك الشخصية التي تظهر الرجل فارساً من فرسان قومه، وسيّداً من ساداتهم أو شاعراً غير منازع فيهم، كما كان الناطق باسمهم ورسولهم إلى الملوك والنافذين، ويدل شعره على أنه كان يتميز بعقلٍ راجح ورأيٍ حصيف، وحكمةٍ ناضجة، وخبرةٍ في إيراد الأمور وإصدارها، كما يدلُّ على أنه كان لسان قومه، الذاكر لآيامهم والمصور لحروبهم، والمشد بانتهاراتهم والمدافع عنهم في السراء والضراء، كما لا بدّ أن يلاحظ المتصفح لديوانه كثيراً من الأشعار التي تذكر الله والثواب والعقاب، وتتأمل الوجود

(١) حسين نصار - ديوان عبيد بن الأبرص - مطبعة مصطفى الحلبي.

والمصير، وتُحْتُّ على فعل الخير والتحلي بالمزايا الكريمة
والصفات التي تنال الرضا والاعجاب، وهذا يدل على كرم
أخلاقه، وبعد نظره، وسمو مكانته ورؤاه.

ذاك هو عبيد بن الأبرص، الشاعر الذي لا يختلف قط
عن أمثاله من شعراء المعلقات، رغم ما أحيط به من هالة
خرافية وأسطورية، فقد ظلَّ الرجل أسير قومه وعصبيته، ولم
يستطع أن يتغلَّت من الواقع الذي انغمس فيه ووجد نفسه
غارقاً في شؤونه وشجونهِ، فبات يردّد توقعاته دون أن يكون له
في ذلك الترديد أيّ صوتٍ ممّيز أو متفرّد، اللهم إلا ذلك
الصوت الذي نضح بالحكمة وتفرّس بالوجود.

الأغراض الشعرية

- ١ - الشعر والقبيلة
- ٢ - الفخر
- ٣ - الوصف
- ٤ - الحكمة وأغراض أخرى

الشعر والقبيلة

إنّ المراجع للشعر الجاهلي في بداياته الأولى يدرك أن ذلك الشعر كان قبلياً في أكثره، نظراً لعوامل متعددة حدث من انطلاقه، وجعلته يراوح في بيئة ضيقة منعت انطلاقه، وحصرته ضمن أطر محدّدة لم يستطع الشعراء التخلّص منها إلّا بعد فترة طويلة من الزمن، عندما توسعت آفاق بيئتهم وتعمقت مكتسباتهم الدينية والثقافية والاجتماعية.

وإذا عدنا إلى الشعر في الجاهلية لنقف على تلك العوامل، ونلقي الضوء على بعض الجوانب منها، فإنّ أوّل ما يستدعيه ذلك، النظر إلى تلك البيئة التي نشأ فيها ذلك الشعر حتى نستطيع أن نتبين المؤثرات الأولى التي طبعت بطابعها، وجعلته يخضع إلى معايير محدّدة، ومقاييس ضاغطة لم يستطع الافلات منها، والمراد بالبيئة تلك العوامل أو الظروف المختلفة التي من شأنها أن تؤثر في مختلف المناحي السياسية والثقافية والدينية والاجتماعية لأمة من الأمم، والبيئة في اللغة: من باء إلى الشيء يبوء بوء أي رجع، ويقال: أباءه منزلاً: بمعنى هيأ له وأنزله ومكّن له فيه، والبيئة: المنزل، وقيل: منزل القوم حيث

يتباون، وباءت بيئة سوء: أي بحال سوء، وإنه لحسن البيئة، وعمّ بعضهم به جميع الحال^(١).

من هذا التعريف اللغوي للبيئة يمكننا أن ندرك معطيات كثيرة قادرة على التأثير، لأن تلك المعطيات تخلق في الذات شعوراً بالاستقرار والتمكّن والتآلف بين الإنسان والمكان، هذا التآلف الذي توسّع مفهومه وتحوّل إلى «عاطفة متبادلة بين الأهل والدار، بين القاطن والمقطون فيه، وهذا ليس بغريب قطعاً، لأن الاحساس بذلك الرابط القوي بين الإنسان والمكان، هو إحساس إنساني عام يشترك فيه البدائي والمتحضر، وإلا لما كانت الأوطان، ولما كان الموت دفاعاً عنها شرفاً وشهادة»^(٢) والبيئة الجاهلية كما نعلم بيئة بدائية تمثّل بأعرافها وقيمها وأنماطها عصراً متميّزاً، ونظاماً من الحياة خاصاً، وهذا النظام قد فرض على الشعراء، انتحاء نهج معين، ولا حظ لم يكن لهم القدرة على تغييره أو المساس به والخروج عليه، لأنه نظام يقوم على المفاهيم القبليّة التي جعلت الفرد مرتبطاً بالجماعة ارتباطاً مصيرياً يشقّ عليه أن يتحلّل منه أو يتهاون فيه، فالقبيلة في المفهوم اللغوي تعني: الجماعة، وجاء في اللسان: القبيل: طاعة الربّ تعالى، والقبيلة من الناس: بنو أب

(١) اللسان - مادة بوا.

(٢) مفيد قبيحة: المملّقات العشر، شرح ودراسة وتحليل ص ٢٥١ دار العلوم العربية.

واحد، واشتق الزجاج القبائل: من قبائل الشجرة وهي أغصانها^(١) فالمعاني المستوحاة من ذلك الشرح اللغوي تشير كلها إلى مفهوم واحد يحتم على الفرد الانصهار في الإطار القبلي، وخصوصاً إذا أدركنا طبيعة الحياة آنذاك وشرائعها العامة وظروفها الضاغطة التي تفرض على الفرد أن يلتجئ إلى قوة تمنحه وتحميه، أو تشعره في الانتهاء إليها بالمنعة والأمان.

وإذا عدنا لنستعرض قليلاً مظاهر تلك البيئة، فإننا نجد أنها كانت تنقسم إلى بيئتين اثنتين، بيئة طبيعية وبيئة مادية، والبيئة الطبيعية كانت قاسية على الجاهلين ولها تأثير عظيم على حياتهم ومنازلهم ومقومات وجودهم التي كانت تركز على الموارد الحيوانية إلى درجة بعيدة، إذ لم تكن هناك موارد أخرى تساعدهم على مواجهة الحياة، فلا زراعة ولا تجارة ولا صناعة، ولا مقومات اقتصادية فاعلة وقادرة على خلق الاستقرار، بل ماشية ورعي، وقبائل ترحل إلى مساطق الغيث ومنابت الكلا، ولذلك كان مصيرهم «منوطاً بمصير الكلا يتنازعونه، بعضاً من بعض، كأنما يتنازعون بقاءهم، ويكاد لا يجذب موسم القبيلة حتى تغزو قبيلة أخرى، توري لديها وترأ، لا تعتم أن تنهض للشار له، حتى غدت حياتهم سلسلة من الاعتداءات والثارات»^(٢).

(١) اللسان: مادة بوا.

(٢) إيليا حاوي: النابغة الذبياني ص ١١ - دار الثقافة.

فهذه الحياة القاسية أسهمت في تعميق النزاعات، وأذكت نار الأحقاد والصراعات داخل الجزيرة العربية وبين قبائلها المتعددة، كما أصّلت في نفوس أولئك القوم الولاء القبلي، وأنتجت ما يمكن لنا أن نسميه البيئة المادية أو «الدولة القبلية» التي كانت تتمتع بكلّ قوانين السيادة والاستقلال، ويبدو أنّه قد توفّر لدولة القبيلة كلّ شروط الدولة ومقوماتها من وطن وأبناء ورئيس ومجلس وراية أو شعار^(١) كما كانت تقوم بما تقوم به الدولة عادة من التحالفات والانفاقات والاتحادات التي كانت تجري بين القبائل الكبيرة القوية والقبائل الصغيرة الضعيفة التي تنضمّ إليها لتحتمي بها وتشعر في ذلك الانضمام بالمنعة والقوة، يقول البكري: «فلما رأّت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس في الماء أو الكلأ، والتماسهم المعاش في المتسع، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش، واستضعاف القويّ الضعيف، انضمّ الذليل منهم إلى العزيز، وحالف القليل منهم الكثير، وتباين القوم في ديارهم ومحالهم، وانتشر كلّ قوم فيما يليهم»^(٢).

ولن نستطرد في تفاصيل نظام الدولة القبلية، فقد

(١) راجع حسين عطوان: مقدّمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ص ٣١ - دار المعارف.

(٢) معجم ما استعجم ج ١ - ص ٥٣ طبعة السّقام.

أسهبت المصادر والمراجع في ذكر ذلك، ولكننا نحسب أن نركز على موقع الفرد داخل القبيلة، ذلك الموقع الذي نرى أنه كان يتفاوت تبعاً لتفاوت الحاجات والمهام التي كان باستطاعة الفرد أن يقوم بها أو يؤتمنها، وتنصب بالتالي في خدمة المجموع، ولذلك كان للفرد القدر موقع مهم، فشيخ القبيلة وشاعرها وخطيبها وفارسها إلى غير ذلك من الأفراد الذين كانوا يتمتعون بمؤهلات قادرة على التأثير، تبوأوا في القبيلة المواقع الرئيسية، واستطاعوا بما لهم من نفوذ مادي ومعنوي أن يكونوا القادة في الحرب والسلام والبعوث والزيارات، فضلاً عن النفوذ السياسي الذي أوجب على جميع أفراد القبيلة طاعتهم وتقديمهم واستشارتهم في كل أمر يردون إليه أو يصدرون عنه، ولقد أحس الفرد في القبيلة بقوة الانتفاء وعري الأواصر وضرورة التلاحم، فكان «كل فرد فيها يضحي لها بنفسه كما يضحي لها بماله، فهي حياته وكيانه، وهو مع اعتزازه بفرديته وشخصيته وحرّيته، يعيش لها وداخل إطارها مدفوعاً في ذلك بعصية شديدة»^(١) وقد أشار ابن خلدون إلى تلك العصية التي جعلها منطلقاً للتلاحم الصادق الذي يذود ويدفع، لأن أهل العصية والنسب الواحد في رأيه «تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم، إذ نعمة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم، وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وقرباهم موجودة

(١) شوقي ضيف: العصر الجاهلي ص ٦١ - دار المعارف.

في الطبائع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر، وتعظم رهبة العدو لهم»^(١).

إذاً لقد كان في القبيلة مواقع أساسية لبعض الأفراد المميزين، ويأتي في طليعتها موقع الشاعر الذي فرضته ظروف معينة جعلت الكلمة في تلك المجتمعات تتحول إلى قيمة عليا! بحيث «كانت قادرة على التأثير والتوجيه، وعلى أن ترفع وتضع، وتعز وتذل، وتحكم وتفصل، وخاصة إذا كانت شعراً منظوماً يسهل على الألسنة تناقله، وعلى الركبان حفظه والتغني به والنشر له بين القبائل التي تتنازع على السيادة والشرف والشهرة»^(٢) ولذلك نرى القبائل في الجاهلية كانت تقيم الاحتفالات إذا ما نبغ فيها شاعرٌ فذ يستطيع بشعره أن يذب عنها، ويدفع اتهامات الأعداء لها، ويرفع من قدرها، ويعلي من شرفها ونسبها، ونشر فضلها ومكارمها فقد ذكر أن القبيلة منهم كانت «إذا نبغ فيها شاعرٌ أتت القبائل فهنأتها بذلك، وصنعت الأطعمة، واجتمعت النساء يلعبن بالزاهر كما يصنعن بالأعراس، وتباشروا به، لأنه حماية لأعراضهم وذبٌ عن أحسابهم وتخليدٌ لمآثرهم وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهتثون إلا بغلام يولد، أو فرسٌ تنتج، أو شاعرٌ ينبغ فيهم»^(٣) وحتى تبين

(١) المقدمة ص ٨٨ - دار الهلال.

(٢) المعتقدات العشر ص ١٥.

(٣) محمود شكري الألوسي: بلوغ الأرب ج ٣ ص ٨٤ - دار الكتب العلمية.

أهمية الموقع الذي تبوّأه الشاعر في قبيلته، نذكر ما أورده الروايات عن بني جعدة في تقديرهم لشاعرهم حيث قيل: أمسك على النابغة الجعدي أربعين يوماً فلم ينطق بالشعر ثم إن بني جعدة غزوا فظفروا، فاستخفّه الطرب والفرح، فرام الشعر فذلّ له ما استصعب عليه، فقال له قومه: والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسرُّ منا بالظفر بعدونا»^(١).

فمن هاتين الروایتين تتجلى أهمية الموقع الرفيع للشاعر الذي غدا لسان القبيلة، والمسطر لآحداثها والحافظ لأنسابها والمدافع عن حرمانها، كما تتجلى أهمية الشعر الذي غدا عند العرب كما تقول المصادر «ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون»^(٢) كما غدا سجلاً لتاريخهم وحافظاً لمناقبهم ومآثرهم من الاندثار والضياح، يقول الجاحظ: فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال، وكانت العرب تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر والكلام الموزون المقفى، وكان ذلك ديوانها»^(٣).

ولعلّ الذي أورده من الروايات كافياً لبيان موقع الشعر

(١) المستطرف من كل فن مستظرف ج أول ص ١٣٨ - دار الكتب العلمية.

(٢) ابن سلام الجهمي: طبقات الشعراء ص ٣٠ دار الكتب العلمية.

(٣) الحيوان ج ١١ ص ٤٩ - دار الهلال.

والشاعر على السواء في نفوس أولئك القوم^(١) وحاملاً لنا على العودة إلى شاعرنا عبيد بن الأبرص لتتعرّف على أهم أغراضه الشعرية التي كانت في مجملها صدقاً لحياته القبلية، وهو بذلك لا يختلف عن رفاقه الشعراء المعاصرين له، أمثال النابغة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة بن شداد وليبد بن ربيعة وغيرهم من الشعراء الذين نلاحظ في أشعارهم بروز الشعر القبلي بكل خصائصه وتميزاته، فضلاً عن بروز تيارات ذاتية أخرى لا يمكن لنا تجاهلها، لأن موضوعات الشعر أوسع من أن تضيق فتقتصر على جانب واحد من جوانب الوجود، وانفعالات الإنسان أرحب من أن يحددها شعور واحد معين، ولكن الموضوعات البارزة في شعر عبيد هي الموضوعات القبلية التي يمكن لنا من خلالها أن نستخلص أحداثاً تاريخية ارتبطت به وبقبيلته، فعبر عنها في قصائد متعددة تظهر جوانب ذلك الولاء العام للقبيلة، والحقيقة أن المراجع لشعر عبيد يمكنه أن يقف على ذلك الولاء في كل موضع يذكر فيه نفسه أو قبيلته، ويفتخر فيه بالمناقب والأحساب، فليس هناك فرق بين الذات وبين المجموع، أو بين المطامع الذاتية والمطامع القبلية، حيث نجد انصهار تلك المطامع في ذلك الشعر الذي كان في طليعة

(١) راجع كتابنا المملقات العشر: شرح ودراسة وتحليل - دار العلوم العربية، للوقوف على أهمية الشعر والشاعر في العصر الجاهلي.

خصائصه المميّزة «فناء الشاعر في القبيلة، أو فناء العنصر
الشخصي في العنصر الجماعي»^(١) ولذلك فإن عبيداً وأضرابه
من الشعراء القبليين، وجدوا في القبيلة أنفسهم، كما وجدت
القبيلة فيهم صورتها ومقومات وجودها. . .

(١) محمد زكي المشاوي: النابغة الذبياني ص ١٩٤ - دار المعارف.

الفخر

إنَّ المَطَّلَع على الشعر الجاهلي سوف يجد أن شعر الفخر بشكل عام كان مرتبطاً فيه إلى حدٍّ بعيد بالقبيلة وسادتها وفرسانها وأفرادها، فهو ليس فخراً ذاتياً أو فردياً، لأنَّ شخصية الفرد كانت تنصهر داخل القبيلة، وما يحققه الفرد من إنجاز شخصي على صعيد المزايا والصفات والانتصارات، فإنما هو تحقيق لكلِّ أفراد القبيلة التي كان الولاء الأوَّل لها، والجهد الأكبر ينصبُّ على خدمتها وإعلاء شأنها، وعبيد بن الأبرص في شعره لم يكن بعيداً عن ذلك الاطار، فهو شاعر القبيلة التي يعيش لها، ويدافع عنها، ويهب نفسه فداءً لها، فقد استأثرت القبيلة منه بالاهتمام الكبير، وقلَّما تقرأ قصيدة أو مقطوعة له، إلَّا وللقبيلة وأفرادها ذكر يمجّد المحاسن والفضائل، ويذبُّ على الأهل والحرّامات، ولذا فقد كانت القبائل في الجاهلية «تقدّم شعراءها على شعراء غيرها، وتجعل في أيديهم ألوية الشعر وقيادة الشعراء في معارك القصيدة»^(١) إنه إذا ولّاء متبادل يخدم مصلحة الطرفين، حيث الشاعر فيه مقدّم عند أفراد القبيلة

(١) تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام ج ٩ ص ٢٢.

وسادتها، والقبيلة مقدمة عند الشاعر فهي الهمّ الوحيد الذي لا همّ له سواه.

من هنا يبدو التضامن الحقيقي الذي كان مفروضاً لأسباب كثيرة قد نجد لها تبريراً في وقت كانت فيه القوة هي الشريعة السائدة والأساس الذي تبنى عليه الأجداد وتضامن الحرمات، فلا وجود للكرامات والقيم المعنوية والمادية إلا بوجود القوة التي تحمي وتصور وتجعل الغير يقف هياباً من أن ينالها بسوء أو يرميها بتهمة وأذى، وهذا التضامن الوثيق بين أفراد القبيلة هو «تضامن أحكم عراه جرسهم على الشرف، وقد تكونت حوله مجموعة من الخلال الكريمة، لعل خير كلمة تجمعها هي كلمة المروءة التي تضمّ مناقبهم من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والاعراض عن شتم اللثيم والغض عن العوراء»^(١).

ولم تخلُ مقطوعة أو قصيدة في شعر عبيد من ذلك المفهوم القبلي، فهو دائماً يظهر ولاءه الكبير للقبيلة من خلال تعداد مآثرها ومناقبها وقيمها، والبكاء على سادتها وأفرادها، وحتى على الرسوم والأطلال العائدة إلى منازلها، كما أنّ فخره بقبيلته لم يكن إلاّ فخراً ينطلق من ذلك الولاء الكلي لها، وهو وإن كان في مجمله فخراً تقليدياً يعدّد الأجداد ويشيد بالأنساب

(١) شوقي ضيف - العصر الجاهلي ص ٦٧.

والأحساب، إلا أنه كان فخراً مبنياً على المقارنة بين الخير والشرّ
والفضل والذلّ والشرف والعار والكمال والنقصان، إنه نوع من
التضاد الذي لا يتلاقى وهو تضادٌ يرادُّ منه إظهار المحاسن
وإذاعة المساوئ بشكل فيه ترغيب وإثارة يقول عبيد^(١):

أنبت أن بني جديلة أوعبوا
نفرأ من سلمى لنا وتكتبوا^(٢)
ولقد جرى لهم فلم يتعيفوا
تيسن قعيد كالولية أعضب^(٣)
وأبو الفراخ على خشاش هشيمة
متنكباً ابط الشمال ينعب^(٤)
وتجاوزوا ذاكُم إلينا كله
عدوا ومرفصة فلما قربوا^(٥)

(١) ديوان عبيد ص ٣١ - ٣٥ دار صادر.

(٢) أوعبوا: خرجوا بمجملهم، وتكتبوا: صاروا كتائب مستعدة للقتال.

(٣) يتعيفوا: من العيافة وهي زجر الطير لليمن والشؤم، والولية: البرذعة،
والأعضب: مكسور القرن، والتيس هنا رمزٌ للشؤم بصفاته التي ذكرها
عبيد.

(٤) أبو الفراخ: الغراب، وهو رمز الشؤم، والخشاش: نوع من الحشرات
كالخنفسر، والحشيمة: الشجرة اليابسة، وتنكب: يميل، والشمال:
الريح الشمالية.

(٥) العدو والمرفصة: ضربٌ من السير.

طعنوا بمرّان الوشيح فما ترى
 خلف الأسنة غير عرق يشخب^(١)
 وتبدّلوا اليعبوب بعد إلههم
 صنماً فقرّوا يا جديل وأعذبوا^(٢)
 إن تقتلوا منا ثلاثة فتية
 فلمن بساحوق الرعيل المطنب^(٣)
 فبحمد حيّهم وحمد قبيلهم
 إذ طال يومهم وعاب العيّب^(٤)
 فلتعزف القينات فوق رؤوسهم
 وشرابهم ذو فضلة وعنّب^(٥)
 بل لا محالة من لقاء فوارس
 كرم متى يدعوا لروع يركبوا^(٦)

(١) المرّان: الرماح اللينة، والوشيح: شجر تصنع منه الرماح، ويشخب: يسيل دماً

(٢) اليعبوب: اسم صنم، قرّوا: سكنوا، وأعذبوا: كفّوا وامتنعوا.

(٣) الساحوق: اسم موضع، والرعيل: الجماعة من كل شيء، والمطنب: الكبير.

(٤) طال يومهم: أي صار طويلاً لأنهم قتلوا وأسر منهم من أسر.

(٥) تعزف: أي تنح، والمعنّب: من الشواء.

(٦) كرم: صفة بمعنى كريم.

شَمُّ كَانَ سَنَا الْقَوَانِسِ فَوْقَهُمْ
 نَارٌ عَلَى شَرْفِ الْيَفَاعِ تَلْهَبُ^(١)
 وَهُمْ قَدْ اتَّخَذُوا الْحَدِيدَ حَقَائِباً
 وَخَلَّاهُمْ أَدَمُ الْمَرَائِلِ تَجْنِبُ^(٢)
 مِنْ كُلِّ عَمْسٍ السَّرَاةَ مَقْلُصُ
 قَدْ شَفَّهَ طَوْلُ الْقِيَادِ وَالْغَبَا^(٣)
 وَلَقَدْ شَبَبْنَا بِالْجِفَارِ لِدَارِمِ
 نَاراً بِهَا طَيْرُ الْأَشَائِمِ يَنْعَبُ^(٤)
 وَلَقَدْ تَقَادَمَ بِالنَّسَارِ لِعَامِرِ
 يَوْمَ لَهُمْ مَنَا هُنَاكَ عَصْبُصِبُ^(٥)
 حَتَّى سَقَيْنَاهُمْ بِكَأْسِ مَرَّةٍ
 فِيهَا الْمُثْمَلُ نَاقِعاً فَلِشَرْبَا^(٦)

-
- (١) شَمُّ: من الشمم وهو الرفعة، والقونس: يعني ما يلبس على الرأس من الحديد كالبيضة، واليفاع: المرتفع من الأرض.
 (٢) الحديد: الدروع، وخلاهم: بينهم، وأدم المراكل: يعني قد ابيض موضع عقب الفارس من الفرس مما يركله برجله.
 (٣) المسود: الموتى الخلق، والسراة: الظهر، وشفه: أهزله، والغبا: تعبوا.
 (٤) شبيبنا: أوقدنا، والجفار، ماء في ديار بني نعيم.
 (٥) النصار: اسم موضع، وعصبصب: شديد.
 (٦) المثل: السم، والناقع: القاتل المميت.

وغداة صَبَحْنَ الجفار عواباً
 يهدي أوائلهنَّ شعثُ شَرَبٍ^(١)
 لما رأونا والمغال وسطهم
 والخيل تبدو تارةً وتغيبُ^(٢)
 ولوا وهنَّ يجلن في آثارهم
 شللاً وبالطناهم فتككبوا^(٣)
 سائل بنا حُجْرَبْن أَمَ قِطام إذ
 ظَلَّتْ به السَّمر النواهل تلعب^(٤)
 صبراً على ما كان من حلفائنا
 مسكٌ وغسلٌ في الرؤوس يشيبُ^(٥)
 فليبكههم من لا يزال نساؤه
 يوم الحفاظ يقلن أين المهرب^(٦)
 في هذه القصيدة التي اقتطفنا أجزاء منها، يتوعد الشاعر

(١) يهدي أوائلهنَّ: أي يتقدمهم، والشعث: يريد الخيل، والشرب: الضمير.

(٢) المغال: واحداً مغول وهو الذي يكون في السوط شبه السيف.

(٣) يجلن: يرمين، وشللاً: طرداً، وبالطناهم: جالذناهم، وتككبوا: تجمعوا.

(٤) السمر: الرماح، والنواهل: المرتوية من الدم.

(٥) يعني أنه ليس بينهم وبين بني جديلة إلا الحنوط، وهو رمز الاستعداد للموت.

(٦) الحفاظ: المنع للمحارم والدفاع عنها.

بني جديلة الذين خرجوا لقتال قومه، محاولاً لفت أنظارهم إلى ما سيجرّه عليهم ذلك الخروج من مدّة وعار، وذكره للغراب والتيس الأعصب القعيد، إنما هو هنا يرمز إلى الشؤم الذي لا محالة سوف يحلّ بهم، لأنهم يواجهون قوماً مجربين في الحروب، ولديهم الخبرة الكافية والقدرة التامة على مواجهة المعتدين والنيل منهم، فالحرب كرّ وفر، ولا بدّ للمحارب من أن يتقبّل الخسائر في الأموال والأنفس ولكنها في النهاية خسائر لا تذكر لأنها تدفع في سبيل صون كرامة القبيلة والدّفاع عن حرمانها، فلا بذل أحبّ إلى النفوس من بذل يعلي راية القبيلة ويكتب المجد والعزّ لها، فالأنفس كلّ الأنفس فداء للشيم والمكارم والفضائل، وأبناء قبيلته هم الشّمّ الأشاوس الذين يلبسون الحديد ويمتطون الصهوات ويبدلون الغالي والرخيص في سبيل ذلك، فلهم الأيام المعروفة التي أذلّوا فيها الأعداء، ويكفيهم فخراً قتل ملك كندة حجرين أمّ قطام والد الشاعر امرئ القيس، وينتهي عبيد مهذّباً بني جديلة بقومه الذين يتحلّون بالصبر على الشدائد، ويتقبلون الموت بسعادة لأن شعارهم في الحرب إمّا موت كريم، وإمّا نصر مؤزّر.

ويقول عبيد في موضع آخر متذكراً لقبيلته معدداً أمجادها^(١).

(١) ديوانه ص ٣٧.

تذكرت أهلي الصالحين بملحوب
 فقلبي عليهم هالكٌ جدٌ مغلوب
 تذكرت أهل الخير والباع والندى
 وأهل عتاق الجرد والبر والطيب^(١)
 تذكرتهم ما إن نجفَ مدامعي
 كأن جدولٌ يسقي مزارعَ غروب^(٢)

وهكذا نجد عبداً ينظم شتات المكار ليصوغ منها عقداً
 كريماً يزين به جيد قبيله الذين ليس كمثلهم بين الأقوام، إنهم
 أهل البأس والندى والمكارم والمروءات، فهو متعلق بهم، قلبه
 لهم، ودموعه لأجلهم، يفرح لأفراحهم ويبكي لأتراحهم،
 الحياة بدونهم عذاب، ومعهم سعادة وهناء.

وإذا حاولنا أن نترصد شعر عبید الذي يفتخر به، فإننا
 قلما نجد مقطوعة أو قصيدة إلا والفخر بالقبيلة ومآثرها يطل
 من أبياتها ويحظى بالقسم الأوفر منها، وهو فخر وإن اتخذ في
 بعض الأحيان منحى ذاتياً وحديثاً عن المزايا الخاصة، إلا أن
 ذلك يعود في النهاية على القبيلة التي غدته بتلك المروءات، كما
 أنه ليس هناك من فرق بين الفرد والمجموع فأجداد الفرد هي
 أجداد القبيل وأجداد القبيل هي أجداد الفرد، تواصل وتلاحم

(١) أصل الباع: أهل اشرف والكرم والمقدرة.

(٢) غروب: أي أصابها الخراب والقفل.

يصهر الذات ليصب في نهر واحد هو نهر القبيلة الذي ينهل
الجميع من معينه العذب.

ولن نستطرد في ذكر نماذج من شعر الفخر لديه، لأننا كما
قلنا يكاد يكون متشابهاً في غاياته وأهدافه، فهو وإن تعددت
أساليبه وتباينت صياغته، إلا أن محتواه لا يكاد يفارق ما أشرنا
إليه من تمجيد للقيم والعادات التي كانت العرب تفتخر بها،
وتعطيها هالة مقدسة تكاد تصل حد الاعتقاد والعبادة، وقد
تغنى عبيد بالقيم العربية الجاهلية، وألبس قومه منها حللاً
قشبية تختلف ألوانها، إلا أنها في النهاية تؤدي إلى ما أسمىناه
ذلك المحتوى الذي كان يدور في إطار معين ومحدد، توجهه
المصالح القبليّة وتغذيه القيم السائدة، يقول عبيد^(١):

أمن رسوم نأيتها باحل
ومن ديار دمك الهامل^(٢)
أجالت الريح بها ذيلها
عاماً وجون مسبل هامل^(٣)

(١) ديوانه ص ١٢٣ - ١٢٦ دار صادر.

(٢) النأي: هو النؤي حفر حول الخيمة، والناحل: الهزيل، والهامل:
المتساقط.

(٣) الجون: الأسود، صفة للسحاب، والمبل: الداني من الأرض، والهامل:
المطر.

ظلت بها كأنني شارب
 صهباء مما عتقت بابل^(١)
 بل ما بكاء الشيخ في دمنه
 وقد علاه الوضع الشامل^(٢)
 أقوت من اللائي هم أهلها
 فما بها إذ ظعنوا أمل^(٣)
 يا أيها السائل عن مجدنا
 إنك عن مسعاتنا جاهل^(٤)
 إن كنت لم تأتك أيامنا
 فاسأل تنبأ أيها السائل^(٥)
 سائل بنا حَجراً وأجناده
 يوم تولى جمعه الجافل^(٦)
 يوم أتى سعداً على ماقط
 وجاولت من خلفه كاهل^(٧)

(١) ظلت: مكثت، والصهباء: الخمر.

(٢) الدمنة: آثار الديار الدالة عليها من سماء وقاذورات، والوضع: الشيب.

(٣) أقوت: أفقرت وخلت، وظعنوا: رحلوا.

(٤) مسعاتنا: يعني أفعالهم وفضلهم، أراد «بمسعاتنا» أدخل عن مكان الباء.

(٥) أيامنا: يريد بها المواقع التي انتصر بها قومه.

(٦) حجر: هو والد امرئ القيس، وقد قتله بنو أسد، والجافل: الهارب

المذعور.

(٧) الماقط: موضع القتال، أو المضيق في الحرب، وسعد: هو ابن ثعلبة بن

كاهل بن أسد بن خزيمه رهط الكميت، وجادلت: قاتلت.

فأوردوا سرباً له ذبلاً
 كأنهنّ اللمب الشاعل^(١)
 وعامراً أن كيف يعلمهم
 إذا التقينا المرفف الناهل^(٢)
 وجمع غسان لقيناهم
 بجحفل قسطله ذائل^(٣)
 قومي بنو دودان أهل النهى
 يوماً إذا ألقحت الحائل^(٤)
 كم فيهم من سيد أيدي
 ذي نفحات قائل فاعل^(٥)
 من قوله قول، ومن فعله
 فعل، ومن نائله نائل^(٦)
 القائل القول الذي مثله
 ينبت منه البلد الماحل^(٧)

(١) أوردوا: ذهبوا ليقوا، والذبّل: الرماح.

(٢) المرفف: السيف، والناهل: العطشان.

(٣) الجحفل: الجيش العظيم، والقسطل: الغبار الذي يثيره الجيش في مسيره، والذائل: الطويل.

(٤) النهي: العقول، وألقحت: حبلت.

(٥) الأيد: القوي، والنفحات: العطايا.

(٦) النائل: العطاء.

(٧) الماحل: المجدب.

لا يحرم السائل إن جاءه
ولا يعفني سببه العاذل^(١)
والطاعنُ الطعنة يوم الوغى
يذهلُ منها البطل الباسل^(٢)

في هذه القصيدة التي لم تخرج في نهجها ومحتواها عن
الشعر الجاهلي بوجه عام، نرى الشاعر يفتح قصيدته بالوقوف
على الاطلال والذّمن متأملاً أحوالها، مجيلاً نظره في معالمها
الدارسة، مستوحياً منها ذكريات خالية، وهي ذكريات تثير
المشاعر وتمزّج النفوس، لأنها تظهر التحوّل الذي بدّل الوجود
من ناضرة إلى باسرة، والمنازل من عامرة إلى مقفرة، إنه تحوّل
الزمن الذي يصيب الإنسان والأشياء ويترك في النفوس
الشاعرة أعمق الأسى وأشدّ المرارة.

بعد هذا الوقوف المصحوب بالبكاء والدموع والرحيل
والذكريات، ينتقل الشاعر إلى تذكر أهل تلك الديار، وهم
قبيله الذين طابت الحياة بوجودهم وساءت برحيلهم، وكيف لا
تطيب الحياة مع الرجال الذين بنوا الأجداد وأعلوا صروح
المكارم والقيم، فمجدهم ليس بخفي على السائلين، ولا يمكن
لأحد أن يتجاهله، لأنه عريق تليد مليء بالأيام المشرقة، زاخر

(١) يعفني: يحبس ويمنع، والسبب: العطاء.

(٢) يذهل: يفقد رشده، والباسل: الشجاع.

بالوقائع المظفرة، ومن يجهل ايقاع قومه بحجر والد امرىء
 القيس وجحافل جيشه الجرار، وكيف تجهل الهزائم التي حلت
 بقبائل بني سعد وبني عامر وبني غسان في أيام أبلى فيها بنو
 أسد البلاء المشرف الذي بدد الجموع وأورد الخصوم المهالك
 والختوف، وقومه هم أهل الشجاعة والاقدام، كما هم أهل
 الرأي والقول، والفعل والعطاء، جمعوا المجد من أطرافه،
 وحازوا المكارم بأجمعها، فلا عيب ولا نقصان، بل كمال يكاد
 يماثل المطر الذي يبدد أين حلّ مواقع القحل، ويلبس الأرض
 زينة شاملة، فلا تقع العين إلا على سيب شامل لا يقل عن
 المطر نائلاً، لأنه سيب يعم من يسأل ومن لا يسأل، ويشمل
 العدو والحليف، لأنه عطاء من أجل العطاء، وهم في النهاية
 أهل المكارم وأهل الحرب، تكاملت فيهم القيم الجاهلية بكل
 أشكالها ومعطياتها.

ونختتم الحديث عن الفخر في شعر عبيد بهذه المقطوعة
 التي جمعت في ثناياها كل مقومات الفخر القبلي الذي يركز
 على قيم مختارة ونعوت منتقاة، راح عبيد يصوغها في جزل من
 اللفظ، ويسبغها على أبناء قومه وقبيله يقول عبيد^(١):

وفتية كليوث الغاب من أسد
 ما لندى عنهم نزع ولا شحط^(٢)

(١) الديوان ص ٩٤.

(٢) النزح: الارتحال، والشحط: الابتعاد.

بيض بهاليل ينفي الجهل حلمهم
 وتفزع الأرض منهم إن هم سخطوا^(١)
 إذا تخمط جبار ثنوه إلى
 ما يشتهون ولا يُثنون إن خبطوا^(٢)
 والفارجو الكرب والغمى برأيهم
 إذا تشابت الأهواء والصراط^(٣)
 والقائلو الفصل لا تنأذ طينتهم
 وما لقولهم خلف ولا ميط^(٤)
 والخالطو معر منهم بموسرهم
 وأكرم الناس مطروقاً إذا اختبطوا^(٥)
 مروا اللقاء ومبقو العقد إن عقدوا
 إذا أضاع من الميثاق مشترط^(٦)
 رُجع إذا حضر النادي، حلومهم
 وفيهم الزغف والخطي والرُبط^(٧)

(١) البيض: الاحرار، والبهاليل: السادة الأشراف.

(٢) تخمط: تكبر، ثنوه: أعادوه إلى رشده.

(٣) الصراط: جمع صراط، وهو الطريق.

(٤) لا تنأذ طينتهم: لا تتحني، وهو من قولهم: فلان يابس الطينة: إذا لم يكن سهلاً وطيباً، الخلف: عدم الوفاء بالوعد، والميط: الزجر والجهور.

(٥) اختبطوا: أي أتاهاهم طارق في الليل يغشى ديارهم.

(٦) مرو اللقاء: أي أنهم في الحرب أولو بأس وقوة، والعقد: الخلف.

(٧) رجع: صفة للأحلام، والزغف: الدروع الواسعة، والخطي: الرمح، والرُبط: أي الخيل تربط ونهياً للحرب.

والمشرفية مفلول ضواربها

يوم اللقاء وأيد بالسدي سبط^(١)

لا يحسبون غنى يبقى ولا عدماً

إذا رأى ذاك منهم معشر فرط^(٢)

فأول ما يمكن أن نلاحظه في هذه المقطوعة، هو ذلك الشعور الصادق النبيل تجاه القبيل، أو ما يمكن لنا أن نسميه «الحب الصادق» الذي راح يللم أشات المكارم والقيم، ليصوغ منها عقداً جميلاً يزين به جيد كل أسدي، فقد تضافرت في هذه الأبيات كل مقومات الشعر الأصيل، حيث نرى العاطفة تندفق، والخيال يسوح في مجالات القيم الرفيعة والاعتداد النفسي الزاخر بالأنفة والاباء، والمعاني الرفيعة تتصافر معهما لينسجوا جميعاً حلّة الامجاد الأسدية، وسياجاً من الشرف لا يمكن لأحد أن يتجاوزه أو ينال منه، كما يمكننا أن نلاحظ أيضاً من خلال تلك العاطفة القويّة التي تهزّ المشاعر وتزرع في النفوس الاباء والطموحات والنزوع إلى كل ما هو سام ورفيع، والانسياب اللفظي العذب الذي يطرب السمع ويخلق البهجة والعزم، أن عبداً لم يكن يعبر عن مجرد قيم أراد التغني بها، وإنما كان يعبر عن تطلّعات نفسه، ومكنونات ذاته،

(١) لمشرفية: السيوف، والسيط: الكريم، نعت الجمع «أيد» بالمفرد.

(٢) العدم: الفقر، وفرط: المتجاوزون الحدّ في العطاء وغيره.

وعن مشاعر دافئة وصور انحفرت في مخيلته ، فراح يغدقها في هذا الشعر الجزل القوي على أبناء قبيله الذين ليسوا هم في الحقيقة إلا صورةً لعبيد نفسه .

وهكذا نجد أن عبيداً قد أضفى على قومه ما أحب أن يكون ماثلاً فيه ، كما نجد أنه لم يخرج في فخره عن المحتوى السائد في عصره فهو ابن تلك البيئة المحافظة التي أولت المكارم والقيم عناية فائقة ، فحوّلتها إلى شرائع مقدّسة ملأت في نظرنا ذلك الفراغ الديني ، فصارت عند أناس ذلك العصر الدين والمعتقد . . .

الوصف

الوصف عند الشعراء الجاهليين من أهم الأغراض التي تناولوها، فقد أغنى الشعر الجاهليّ بصوره وتفاصيله، وليس غريباً أن يكثر الوصف عندهم ليطال كل الأشياء التي كانت تراها الأعين، فهم قوم كانوا يعيشون في صحراء قاحلة وفضاء محدود يكاد يكون منقطعاً عن غيره، لانعدام سبل الاتصال ومعطيات التأثير والتغير.

والمطلع على حياة العرب في الجاهلية يدرك أن ذلك الانقطاع عن المؤثرات التي لم تكن معدومة إلى حد الانغلاق الكليّ الشامل، كان مقصوداً إلى حد بعيد، فهم قوم متعصبون لقيمهم ومبادئهم وعاداتهم، ولا يرضون مهما كانت الظروف أن تحل محلّها قيم مستوردة أو معتقدات وافدة فهي بنظرهم أفضل من كل غريب أو وافد حتى وإن راق لهم في بعض الأحيان، ولذا فقد ركّز الجاهليّ أنظاره على وصف خصوصياته وأشياءه، ولم يتعد في ذلك ليستعير من الغير أبعاده ومضامينه، بل كان يستمد من فضائه المحدّد وصحرائه المتشابهة صورته وألوانه. وأتى له أن يسرح في شعره خارج تلك الحدود المغلقة، والعزلة حولت الحياة عنده إلى ليل يعقبه نهار، وإلى كتيب رملٍ

يتلوه كتيب آخر مماثل، مشاهد تتكرر يومياً هنا وهناك، ناقةً وظبي وذئب وحمارٌ وحشيٌّ وفرس وحصان، ورمْلٌ وبرق ورعد ومطرٌ ونبات، أشياء مألوفة غدت لطول التأمل والمشاهدة تتردّد في كلّ شعر، لأنها علقت في الذاكرة. واحتفرت بالوجدان وارتسمت أمام العيون، فتحوّلت في شعرهم إلى صور رتيبة لا تختلف إلّا في الطول والقصر أو في بعض التفاصيل والأحاسيس والألوان، هكذا هو الوصف في الشعر الجاهلي إنه وصفٌ تقريري ينقل بحسيّة وواقعية كلّ المشاهد والصور، ولذا غدا متشابهاً عند أكثر الشعراء، ولكننا مع ذلك لا نجده مملاً، ولا نعدم وجود صور متفرّدة فيه، لأنه في أماكن كثيرة ارتبط بالمشاعر والأحاسيس، واتحد بها اتحاداً عضوياً فغدا في تفاصيله لا ينقل الواقع الماديّ فحسب، بل نراه ينقل معه فيض الذات الشاعرة التي امتزجت به، وأصبحت تؤلّف معه وحدةً مشتركة تصوّر كلّ التوجّعات والتطلّعات، فلقد أضفى الشاعر الجاهلي على موصوفاته أشياء كثيرة من نفسه، وحملها مواجده وما يقلق وجوده، وترك لها حرّية التعبير عن مكنوناتها وعذاباتِها، وعبيد في شعره الوصفي لم يتناول موضوعاتٍ جديدة، فهو كغيره تناول الأشياء التي رآها وصحبها وتألّف معها فغدت تمثّل جزءاً من ذاته وذكريته، فقد وصف الناقة والحصان والفرس والظبي والبرق والمطر، كما وقف على الاطلال وبكى المنازل والديار، ووصف التغيّر الذي أصاب الإنسان والوجود...

يقول عبيد^(١):

نأتك سُليمى فالفؤاد قريحُ
وليس لحاجات الفؤاد مريحُ^(٢)
إذا ذقت فاما قلت: طعمُ مدامةٍ
مشعشةٍ ترخي الأزار قديحُ^(٣)
بماءٍ سحابٍ في أبريق فضةٍ
لها ثمن في البايعين ربيعُ
تأمل خيلي هل ترى من طعائنٍ
بمانيةٍ قد تفتدي وتروح^(٤)
كعموم السفين في غوارب لجةٍ
تكفئها في ماء دجلة ريحُ^(٥)
وقد اغتدي قبل الغطاط وصاحبي
أمين الشظا رخو اللبان سبوح^(٦)

(١) ديوانه ص ٤٦ - ٤٨.

(٢) نأتك: هجرتك، وقريح: معذبٌ مهموم.

(٣) المشعشة: المزوجة بالماء، وترخي الأزار: تتأيل تبهاً وعجباً، والقديح: ما يغرف منه بالقدح.

(٤) الطعائن: النساء في الهوادج، والغدو والرواح: الصبح والمساء.

(٥) اللجة: الماء، والغوارب: الأمواج، وتكفئها: تميل بها.

(٦) الغطاط: الكدرة في جناح القطا، أي أنه يخرج إلى الصيد في الفجر قبل انقشاع الظلام، وأمين الشظا: أي قويّة، والشظا: عظمٌ رقيقٌ صغير مستكن بوظيف الفرس، واللبان: الصدر، والسبوح: الذليق في سيره.

إذا حركته الساق قلت مجنبٌ
 غضيضٌ غذته عهدةٌ وسروح^(١)
 مراتمه القيعانُ فردٌ كأنه
 إذا ما تمأشبه الظباء نطيح^(٢)
 فهاج له حيٌّ غداةً فأوسدوا
 كلاباً فكلُّ الضاريات يشيح^(٣)
 إذا خاف منهنَّ اللحاق نمت به
 قوائم حمشات الأسافل روح^(٤)

يبتدىء عبيد في هذه القصيدة متغزلاً، فيذكر سُليمي
 وتباريح الوجد والهوى، وحاجات النفس والمنى، ويتذكر من
 الحبيبة فاهاً يعبق طيباً أين منه طيب الخمر ورائحته المنعشة،
 بل أين منه انسكابها ممزوجة بماء السحاب وهي تتثال في
 الكؤوس من أباريق فضية ثمينة، إن ذلك لشيء جميل، وجمع
 رائع يقود إلى امتلاك النشوة أو التعبير عنها، وقد أحسن عبيد

(١) المجنب: من التجنب، وهو انحناء وتوتر في رجل الفرس وهو مستحب،
 والغضيض: السمين الأملس والعهدة: مطر الربيع، والسروح:
 المراعي.

(٢) القيعان: جمع قاع وهو الأرض السهلة، ونطيح: أي ينطح والضمير عائد
 على الظبي.

(٣) هاج: أثار، وأوسدوا: أغروا بالصيد، ويشيح: يجذ في أثره.

(٤) نمت به: زادت من سرعته، وحمشات: دقيقة، وروح: الواحد أروح، وهو
 من به روح أي سعة بين الرجلين.

في ذلك الجمع الذي جعل الذكريات الجميلة وحاجات
 النفوس التي أطلت متوقدة في ذاته بعد التذكر والتأمل، تشع
 ضياء لتنير في داخله حباً دفيناً وتباريح وجد وهيام، كما تشع
 الخمرة في نفوس مرتشفيها وهي تنصب في كؤوس اللذة،
 كلاهما يحمل إلى نفس الإنسان النشوة، فالحب لا معنى له إن لم
 يكن نشوة النفوس، والخمرة لا طعم لها إن لم تكن نشوة
 الأحاسيس والأبدان، وليس في الوجود أجمل مما يحمل إلى
 النفس السعادة والانتشاء، بعد تلك المقدمة ينتقل عبيد إلى
 متعة أخرى لا تقل في درجة نشوتها عن الخمر والحب، إنها
 متعة الصيد واللهو، فيصف عندئذ لنا فرسه، وسيلته إلى
 ذلك، في نعوت وتشبيهات تجدها مماثلة عند كل الشعراء
 الجاهلين، فهو فرس قوي القوائم صلبها واسع الصدر، سريع
 كالريح، تراه خلف طريدته يسبح فوق رمال الصحراء كظبي
 مذعور غذته الأمطار بما أنبت من أعشاب وبقول، فصار قوياً لا
 يجارى في جريه، وقع قوائمه على الأرض يثير الصيد من مكانه
 فيجري مذعوراً، فتجد الكلاب في أثره واللحاق به، وهو
 يتابعهم على ظهر فرسه المندفع بسرعة رامياً ما تيسر منه، كما
 يرمي الأبطال في صدورهم أثناء القتال، فتتهوي على رمال
 الصحراء لتسقي حباتها دماً غزيراً، ومن ثم تأتي النائحات
 لتبكي على من وقع عليه القضاء وحل بداره الموت والفناء، لقد
 أكثر عبيد في شعره من الوصف، بحيث لم يترك ظاهرة من

الظواهر الحسية المعروفة إلا وأشار إليها، مثله في ذلك مثل أكثر الشعراء الجاهليين الذين راحوا يصوّرون بيئاتهم وما فيها من مشاهد تتكرر هنا وهناك يقول واصفاً البرق والمطر^(١):

هَبَّتْ تُلُومٌ وَلَيْسَتْ سَاعَةُ اللَّاحِي
هَلَّا انتَظَرْتُ بِهَذَا التُّلُومِ اصْبَاحِي^(٢)
قَاتِلَهَا اللَّهُ تَلْحَانِي وَقَدْ عَلِمْتُ
أَنْ لِنَفْسِي إِفْسَادِي وَإِصْلَاحِي
يَا مَنْ لِبَرْقٍ أَبَيْتَ اللَّيْلَ أَرْقُبُهُ
مَنْ عَارِضٍ كَبِيَّاضٍ الصَّبْحَ لَمَاحٍ^(٣)
دَانٍ مَسْفً فَوْقَ الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ
يَكَادُ يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بِالرَّاحِ^(٤)
فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ كَمَنْ بِمَحْفَلِهِ
وَالْمُسْتَكْنُ كَمَنْ يَمْشِي بِقُرُوحٍ^(٥)
كَأَنَّ رَيْقَهُ لَهَا عَلَا شَطْبًا
أَقْرَابُ أَبْلَقَ يَنْفِي الْخَيْلَ رَمَاحٍ^(٦)

(١) الديوان ص ٥٢ - ٥٤.

(٢) هَبَّتْ: ثارت، واللاحِي: اللاتم.

(٣) العارض: السحاب، واللَمَاح: الشديد البياض.

(٤) دَانٍ: قريب، ومسْفً: قريبٌ من الأرض، والمهْدَب: المتدلي نحو الأرض.

(٥) النجوة: ما ارتفع من الأرض، والمحفل: مستقر الماء، والمستكن: الذي في بيته والقرواح: الأرض المستوية.

(٦) رَيْقَهُ: أوله، وشطب: اسم جبل، والأقرب: الخواصر، والأبْلَق: الفرس =

فالتجّ أعلاه ثم ارتجّ أسفله
وضاق ذرعاً بحمل الماء منصاح^(١)
كأنما بين أعلاه وأسفله
رَيْطٌ منشرة أو ضوء مصباح^(٢)
كان فيه عشاراً جلة شرفاً
شعناً لهاميم قد همت بإرشاح^(٣)
بحاً حناجرها هدلاً مشافرهما
تسيم أولادها في قرقر ضاحي^(٤)
هبت جنوباً بأولاه ومال به
أعجاز مزني يسح الماء دلاح^(٥)
فأصبح الروض والقيعان ممرعة
من بين مرتفقي فيه ومنطاح^(٦)

-
- = فيه سواد، وبياض، وينفي الخيل: يطردها، والرمّاح: الرّفاس برجليه.
(١) التجّ: صوت اللّجة، وارتجّ: اضطرب، والمنصاح: المنشق يصب الماء.
(٢) الرّيط: الواحدة ربطة، وهي الملاة.
(٣) العشار: الناقة التي عليها عشرة أشهر من حملها، والجلة: المسان من الإبل، والشرف: الكبار منها، والهاميم: الغزار، والارشاح: من أرشحت الناقة إذا اشتدّ فصلها وقوي، وإنما ذكرها بذلك لأنها تحن.
(٤) المشافر: جمع مشفر وهو من الناقة كالشفة للإنسان، وهدلاً: مسترخية، والقرقر: الأرض اللينة والضاحي: البارز للشمس.
(٥) الجنوب: الريح الجنوبية، والمزن: السحاب، والدلاح: الممتلئ من الماء.
(٦) المرتفق: الماء الراكد، والمنطاح: الماء السائل.

في هذه القصيدة يعود عبيد ليجمع بين الأشياء المتماثلة،
 وهو في رأيي جمع محبب، فبين هبوب اللائمة اللاحية التي تثير
 في النفس عواصف من الأحاسيس، وبين هبوب الطبيعة بريحتها
 وأنوائها ممانلة حسية رائعة، إنها الاثارة التي تعمل على تغيير
 الأشياء وتبديل الرتبة، وتقضي على ما في الوجود من ركون
 وملل، فالحياة، يجب أن لا تجري على وتيرة واحدة، بل تقضي
 منا التحرك في كل اتجاه، لأن في التحرك تغير يحقق بهجة الحياة
 ويضفي على الوجود رونقاً يماثل الرونق الذي يضيفه المطر على
 الأرض حين يسحّ مثلاً على كسبانها وقيعانها، وعبيد في وصفه
 للبرق والمطر ينقل إلينا مشاهد حسية تأملها، وصوراً لا تباين
 الواقع المادي المألوف، فالبرق الذي قعد له ليله مراقباً وهو
 يشقّ بضوئه سجف الظلام، مكّنه من رؤية ذلك السحاب
 الأبيض المنتشر في الفضاء، فرآه دانياً من الأرض يكاد يلامس
 أديمها المتطامن، وتكاد الأيدي أن تلامس هياذبه المتدلّية المثقلة
 بالمطر، وهي تسحّ الماء في كل اتجاه فلا يسلم من هطله مرتفع
 أو منخفض، وهو يشبه في بياضه الذي يتكشف له إثر لمعان
 البرق، بياض خاصرتي حصانٍ أبلق يزجي الخيل أمامه كما
 تزجي الريح السحاب، فترتجّ تحت أقدامه الأرض، ويشير
 حوله الغبار كما يشير السحاب أديم الأرض بتساقط أمطاره
 وانصبابها الذي لا يترك موضعاً إلّا ويغطيه، وكأنّه ربطة تلفّ
 الجسم من كلّ الجوانب، أو كأنّه ناقة عشار أشرف فصيلها على

الشي ف راحت تزجيه إلى أرض لينة ومعشبة، كما تزجي الريح للسحاب الذي يسبح الماء في كل مكان، وبحول الأرض المجدة القاحلة إلى ممرعة يسيل الماء بين جنباتها ويتجمع في منخفضاتها.

وهكذا نجد عبداً يستمد أوصافه وتشبيهاته من أشياء حسية، فيؤلف بين أجزائها ليكون منها صوراً تنقل إلينا ما أراد نقله والتعبير عنه، بأمانة تكاد ترسم الأشياء بألوانها المعهودة دون أن يستعير لها ما يخالف المؤلف أو يضيف عليها الأبعاد والظلال.

أما وصف عبید لناقته، فإنه لا يعدو في تفاصيله عن تلك الأمانة النقلية، فهو ليس غريباً في منطلقاته عن أقرانه الشعراء، بل هو واحدٌ منهم يلجج مواجهم، ويذهب مذاهبهم فيقول^(١):

لن الدّيار بصاحبة فحروس
درست من الأقفار أيّ دروس^(٢)
دار لفاطمة الربيع بغمرة
فقفا شراف فهضب ذات رؤوس^(٣)

(١) ديوانه ص ٧٦ - ٧٩.

(٢) صاحبة وحروس: موضعان، ودرست أقفرت.

(٣) غمرة وقفا شراف وهضب ذات رؤوس: أسماء أماكن، ونصب الربيع على الظرف على معنى في الربيع.

وسبتك ناعمةً صفّي نواعم
 بيضٍ غرائر كالظباء العيس^(١)
 أفلا تناسي حبُّها بجلالةِ
 وجفاء كالأجُم المطين ولوس^(٢)
 رفع المراد من الربيع سنامها
 فنوت وأردف نابها لسديس^(٣)
 فكأنما تحنو إذا ما أرسلت
 عود العضاء ودقُّه بفؤوس^(٤)
 أفنيت بهجتها وفي سنامها
 بالرحل بعد غيلةٍ وشريس^(٥)

(١) الصفيّ: الخالص، والغرائر: جمع غريرة وهي الشابة الحستاء لا تجربة لها،
 والعيس: البيض.

(٢) تناسي: أي نسي، والجلالة: الناقة الضخمة، والوجناء: العظيمة
 الوجنات، والأجم: الحصون والمطين: المشيدة بالطين، ولوس:
 السريعة.

(٣) المراد: ترددها إلى المرعى، ونوت: سمت، وأردف: جاء بعده، والناب:
 السنّ التي خلف الرباعية، والسديس: السنّ قبل البازل.

(٤) تحنو: تلوي، وأرسلت: ذهبت إلى المرعى، والعضاء شجرٌ يعظم وله
 شوك، والثّق: الدقيق.

(٥) النّي: السمّة في السنام، وغيلة: من الخيلاء، والشريس: الشدة في
 النفس والخلق.

- وأمر خيلٍ قد عصيت بنهدة
 جرداء خاظية السّرة جلوس^(١)
 خلقت على عُسبٍ وتمّ ذكاؤها
 واحتال فيها الصّنع غير نحيس^(٢)
 وإذا جهدن وقلّ مصّ نطافها
 وصلقن في ديمومة إمليس^(٣)
 تنفي الأوائم عن سواء سبيلها
 شرك الأحزة وهي غير شמוש^(٤)
 أمّا إذا استقبلتها فكأنها
 ذبلت من الهنديّ غير يبوس^(٥)
 أمّا إذا استدبرتها فكأنها
 قارورة صفراء ذات كبيس^(٦)

(١) النهدة: الناقة الضخمة، والجرعاء: القصيرة الشعر، والخابية: المكتنزة، والسّرة: الظهر، والجلوس: الوثيقة الجسم.

(٢) العسب: جريدة النخل شبه قوائم الناقة بها، وذكاؤها: سنّها، واحتال فيها الصّنع: أي أتى حول على حسن القيام عليها، ونحيس: غير مجذب. (٣) النطاف: بقايا الماء، صلقن: مشين، والديمومة: الفلاة الواسعة، والإمليس: الفلاة ليس بها نبات.

(٤) الأوائم: الإبل المبطنات، وقد تكون الحجارة، والشرك: ما حفرت الدواب بقوائمها في متن الطريق، والأحزة: الأمكنة الغليظة، والشموس: المانعة ظهرها.

(٥) استقبلتها: نظرت إليها من قبل، ذبلت: هزلت، والهندي: السيف.

(٦) استدبرتها: نظرت إليها من دُبُر، والقارورة: إناء يجعل فيه الشراب أو =

وإذا اقتنصنا لا يحفُ خضابها
 وكان بركتها مداك عروس^(١)
 وإذا دفعنا للحراج فنبها
 أدنى سوام الجامل المحلوس^(٢)
 هاتيك تحملي وأبيض صارماً
 وعرباً في مارن غموس^(٣)
 بعد أن يقف عبيد على ديار الحبية متذكراً فاطمة
 البيضاء الناعمة التي تسي العقول برقتها وجمالها، والتي
 اشعلت في القلب ناراً أضرمتها الشوق وأجج لها الهيام
 والهوى، يعود ليصف لنا ناقتة تلك التي بإمكانها أن تنقله من
 ذلك الهمّ المبرح، وتحمله إلى حيث يستطيع النسيان، فهي ناقة
 ضخمة عظيمة الوجنات، تبدو للمتطلع إليها وكأنها حصن
 منيف ضخيم، غذبتها المراعي بأعشابها، فنما سنامها، وربما
 جسمها، وزادت سرعتها، وقويت مشافرها حتى صارت

= الطيب، وكيس: حلٍ مخوف يوضع فيه الطيب.

(١) الخضاب: ما يختضب به، وقبل: إنه الدم، والبركة: الصدر، والمداك: حجرٌ يسحق به أو عليه الطيب.

(٢) الحراج: جماعة الإبل، والسوام: الماشية والإبل الراحية، والجامل: القطيع من الإبل، والمحلوس: المفضى بالخلس وهو ما يوضع على ظهر الدابة تحت السرج أو الرّحل.

(٣) الأبيض الصارم: السيف القاطع، والمحرّب: السنّان المحذد، والمارن: الرمح، والخموس: الذي طوله خمسة أذرع.

كالنفوس التي تقطع الأغصان والأشواك، إلا أنه لكثرة رحيله وجوبه الفيافي والأمصار، حوّلها إلى ناقة ضامرة أفنت الشدائد كل بهجتها ورونقها، فغدت لضمورها تسابق الخيل، كذلك فهي ناقة نهءاء جرداء شديدة المراس، قوائمها كعشب النخل لطولها، أتمت حولها في مكان غير مجذب، فصارت قوّة على اجتياز الفلوات، تزيل كلّ شيء من طريقها وهي مسلمة القياد، فإذا ما نظرت إليها مستقبلاً ترى أمامك ناقة هزيلة أذبل السير قوامها، وإذا ما استدبرتها بنظراتك وجدت أوراكها كقارورة صفراء مليئة بالطيب، يسيل الخضاب على صدرها الأملس الناعم كحجارة مذكّ العروس أثناء رحلات القنص، أمّا أثناء تدافعها مع أترابها فهي سبّاقة لا تدرك، وقويّة لا تجارى، عليها أمضي إلى غاياتي، وأواجه الأعداء في أوقات الحرب والشدّة، وهكذا تبدو ناقة عبيد ليست بعيدة عن ناقة النابغة التي تحمله إلى النعمان، ولا عن ناقة طرفة التي تنقله إلى غاياته ومقاصده.

تلك هي بعض الموضوعات الوصفية التي تناولها عبيد في شعره، وهي كما لاحظنا موضوعات مستوحاة من البيئة، ولها نظائرها عند أكثر الشعراء.

الحكمة

تذكر الروايات أنَّ عبيداً قد عاش عمراً مديداً بلغ
الثلاثمائة سنة حسب بعض الروايات^(١) إلا أن ذلك مما يشك
في صحته وتقديره، وليست الغاية من ذكر ذلك المناقشة، وإنما
أوردناه للتدليل على أن حكم عبيد المتفرقة والمبتوثة في حنايا
ديوانه، هي وليدة تجارب طويلة، وخبرات واسعة استفادها
خلال ذلك العمر الطويل ووعاها بكل ما فيها من رؤى
وأبعاد، ولذلك كانت في أكثرها تنم عن إدراك قوي لحقائق
الأمور، وتشير إلى بعد النظر عند الرجل في كثير من الخطرات،
خاصة تلك الخطرات التي تتناول الموت والحياة، وتتناول
الوجود والأشياء.

وعبيد في حكمه يبدو شيخاً وقوراً عارك الأيام وعاركته،
وخبر الحياة وخبرته، فاستمد من كل ذلك بعداً في الرأي
وصواباً في التفكير، وسلامة في المنحى، وكيف لا يصيب وقد
شاهد بأم عينيه فناء الشباب وضياح الأحلام ونهاية الأحبة،
وتبدد العمر في متهاتات الزمن، إن ذلك ولا شك هو الذي أمدَّ

(١) راجع العملة ص ٧٨.

عبيداً بخطراته الفلسفية فراح يرسلها في أشعاره حكماً ومواعظ
ونصائح، يقول عبيد^(١):

يا حارَ ما راح من قوم ولا ابتكروا
إلاّ وللموت في آثارهم حادي^(٢)
يا حار ما طلعت شمسٌ ولا غربت
إلاّ تقربَ آجالُ لميعاد
هل نحن إلاّ كأرواحٍ تُمرُّ بها
تحت التراب وأجسادُ كأجساد^(٣)

هكذا هي الحياة، موتٌ يلاحق البشر في غدوهم
ورواحهم، في شبابهم وكهولتهم، في قوتهم وفي ضعفهم، لا فرق
إن كانت الفريسة شاباً طريّ العود، أو شيخاً سئم الحياة فملها
وملته فكلُّ يومٍ يطل بشمسه المشرقة وينتهي بغيابه، إنما هو
يومٌ ينتقص من الأعمار، وسفرٌ يحمل الإنسان إلى غاية مقررة،
ويقربه إلى الأجل الموعود، فليس المرء غير جسدٍ يدفن في
التراب، وروح تذرّوها الرياح فتجري إلى حيث لا يعلم مكان
سروحها.

لقد استأثر الموت عند عبيد الشيخ بكلّ الاهتمام، فراح

(١) ديوانه ص ٧٢.

(٢) يا حار ترخيم يا حارث، الرواح والتكبير: كناية عن المساء والصباح،
والحادي: السائق.

(٣) الأرواح: جمع روح.

في كل أشعاره وحكمه يذكره خائفاً وجلاً، فرائضه ترتعش من تلك اللحظة التي تأتي المرء على عجل، فتقطعه دون سابق إنذار عما يحبّ ويملك، إنها ولا شك لحظة موجعة تثير في النفس الهول والجزع، وتستحق من الإنسان التأمل والتفكير، يقول عبيد^(١):

وللمرء أيامٌ تعدُّ وقد رعت
 حبالُ المنايا للفتى كل مرصد
 منيته تجري لوقتٍ، وقصره
 ملاقاتها يوماً على غير موعد^(٢)
 فمن لم يمست في اليوم لا بدّ أنه
 سيعلقه حبلُ المنية في غد
 فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى
 تهباً لأخرى مثلها فكان قد^(٣)
 فإنا ومن قد باد منا فكألذي
 يروح وكالقاضي البتات ليغتدي^(٤)
 فالمت محيقٌ بالانام أني حلوا وأنى ذهبوا، إنه على حدّ

(١) ديوانه ص ٦٨.

(٢) قصره: غايته.

(٣) فكان قد: أي فكان قد تهباً.

(٤) البتات: الزاد، يريد كالذي يصنع زاده ليسافر غدوة.

قول طرفة^(١) ذلك الشرك الذي لا مفر منه، والحبل الممسك بعنق المرء، حبلٌ قد يطول وقد يقصر، ولكنه في النهاية قادرٌ على الجذب والافناء، فالمنايا تترصد الإنسان وحركاته، تأخذه من دنياه وأحلامه وآماله وما يحب على حين غرة، فمن يفته الأخذ اليوم، فإن غداً لناظره قريب، فلا مهرب ولا منجاة، بل موت محتم يطبق على الأنفاس، فيبئدها ويذهب بها إلى ذلك المجهول الكبير. وإذا كانت أشعار عبيد الحكمة قد ركزت في غالبيتها على وصف الموت وأبعاده الوجودية والمصيرية، فإنَّ المطلع على ديوانه سوف لا يعدم وجود خطرات تختمر بالإرشاد والنصيحة، وتنم عن سداد في الرأي وسلامة في التفكير، يقول عبيد^(٢).

لعمرك ما يخشى الخليل تفحشي
عليه ولا أنأى عن المتودد^(٣)
ولا أبسغي وذامري؛ قل خير
ولا أنا عن وصل الصديق بأصيد^(٤)

(١) يقول طرفة في معلقته:
لعمرك إنَّ الموت ما أخطأ الفتي
لكالطول المُرخي وثنياء باليد

(٢) ديوانه ص ٦٦ - ٦٨.

(٣) الخليل: الجار الخالط له في مجالسه وسكنه.

(٤) الأصيد: الذي يرفع رأسه تكبراً.

وَإِنِّي لَأُطْفِئُ الْحَرْبَ بَعْدَ شَبُوبِهَا
 وَقَدْ أَوْقَدْتُ لِلْفَيِّ فِي كُلِّ مَوْقِدٍ
 وَإِنِّي لَذُو رَأْيٍ يَمَاشُ بِفَضْلِهِ
 وَمَا أَنَا مِنْ عِلْمِ الْأُمُورِ بِمَبْتَدِي
 إِذَا أَنْتَ حَمَلْتَ الْخُؤُونَ أَمَانَةً
 فَإِنَّكَ قَدْ أَسْنَدْتَهَا شَرَّ مَسْنَدٍ
 وَلَا تَظْهَرَنْ حَبَّ أَمْرِي قَبْلَ خَبْرِهِ
 وَبَعْدَ بَلَاءِ الْمَرْءِ فَادْثُمُ أَوْ أَحْمَدُ^(١)
 وَلَا تَتَّبِعَنَّ رَأْيِي مِنْ لَا نَقْصَهُ
 وَلَكِنْ بَرَأْيِي الْمَرْءِ ذِي اللَّبِّ فَاقْتَدِ^(٢)
 وَلَا تَزْهَدَنَّ وَصِلْ أَهْلَ قَرَابَةٍ
 لَذَخِرْ وَفِي وَصِلِ الْأَبَاعِدَ فَازْهَدْ
 وَإِنْ أَنْتَ فِي مَجْدٍ أَصَبْتَ غَنِيمَةً
 فَعَدِّ لِلَّذِي صَادَفْتَ مِنْ ذَاكَ وَازْدَدْ

وهكذا نجد عبيداً في أبياته تلك، شيخاً حصيماً خبر
 الأيام فرودته بكثير من الرؤى الصائبة والنظرات الوجودية
 السليمة المبنية على غنى في التجارب واستبصار في العواقب،
 وهو إذ ينطق بالحكمة معدداً فضائلها، مزيئاً نفسه بامتلاكها،

(١) قبل خبره: أي قبل اختياره.

(٢) نقضه: تنقضي أخباره شيئاً فشيئاً، والمراد هنا اختياره.

فإنما يريد أن يصيب الناس خيرها كما أصابه، وأن يدلل على قيمتها ومردودها، ويحث الآخرين على الاستفادة منها والأخذ بها، لأنها حكمٌ صادرة عن شيخٍ مسنٍّ ورجلٍ مجربٍ، وليس هناك أنفع للإنسان من حكمةٍ تحمل الموعظة والنصيحة، ومثل يظهر الفائدة والعبرة، ولذلك راح عبيد يردّد حكمه كما فعل زهير في معلقته، غير ضأن بها على أحد، لأنه لا يريد أن يستأثر بذلك الخير لنفسه، بل يريد أن يعمّ كلّ الناس ويشمل كلّ زمانٍ ومكان، وهل هناك أجمل من محبة الناس ووصل الأصدقاء وواد الفتن ومقاومة الضلال وأداء الأمانة واتباع ذوي الألباب والتمسك بتلابيب المجد، إن ذلك كلّهُ من الخلال الكريمة التي تزين المرء وتسمو به إلى مدارج الفضيلة والكمال.

وفي موضع آخر نرى عبيداً يزيّن للناس الصبر ويحثهم على تحمل المكاره فيقول^(١):

صَبْرُ النَّفْسِ عِنْدَ كُلِّ مَلَمٍّ

إِنْ فِي الصَّبْرِ حِيلَةٌ الْمُحْتَالُ^(٢)

لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأُمُورِ فَقْدُ تَكْ

شَفِ غَمَاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالٍ^(٣)

(١) ديوانه ص ١٢٨.

(٢) المحتال: الطالب.

(٣) الغمّاء: الحزن والكرب.

ربما تجزع النفوس من الأ
مر له فرجة كحل العقال^(١)

في هذه الأبيات نرى عبيداً يدعو الإنسان إلى مواجهة الحياة بالحكمة والروية، وعدم التعجل في إصدار الأمور وإيرادها، حتى يأمن العواقب ويسلم من الأذى وينال ما يبتغيه دون أي مشقة، فرب أمر تتعجله أيها الإنسان وهو يحمل إليك الضرر، ورب أمر تستبطئه يكون لك فيه النفع والخير العميم، وليس عليك في وقت التبرم والضيق إلا الصبر، لأن لكل شيء نهاية ولكل عقدة حل.

تلك هي بعض الحكم التي وردت في شعر عبيد، وحملت إلينا آراءه وخبراته، وهي كما رأينا حكمٌ صالحة لكل زمان ومكان، لأنها وليدة التجارب الإنسانية التي تتكرر بالتأمل والملاحظة هنا وهناك، ما دامت الحياة تدور، وما دام الإنسان فيها بطبائعه وغرائزه وعواطفه، قائماً فيها لا يتغير ولا يتبدل، وإن لحقه في ذلك بعض الصقل والتهذيب.

أما بقية الموضوعات التي تناولها عبيد في أشعاره، فإنها لا تعدو الغزل والرثاء والهجاء، وقد أشرنا إلى هذه الأغراض في حديثنا عن الوصف والفخر، فقد جرّه الوصف إلى الغزل وذكر

(١) الفرجة: المتسع، أو الفرج، والعقال: الشيء المربوط المعقد، والمعنى أنك قد تصل إلى الأمر الذي تجزع من الوصول إليه بسهولة ويسر.

الاحبة والوقوف على الديار وسفح الدموع في بعض الأحيان، وهو في مجمله غزلٌ تقليدي كان يستهلُّ به قصائده على عادة الشعراء الجاهليين آنذاك، إلّا أنّه غزلٌ عبَّ إلى النفس، بعيد عن الفحش والبذاءة، يظهر اعتداد الرجل بقيمه التي لا يرضى بديلاً عنها رغم اللوم والعتاب، فهو لا يتفتّى ولا يتهنّك فيه، وكثيراً ما وفق عبيد في توجيهه والربط بينه وبين الأغراض الأخرى التي تناولها في قصائده، كما أنه زاد من سلاسة الأسلوب بما بثّه فيه من عواطف رقيقة وصور جميلة صاغها بالفاظٍ عذبة لينة، فحفّف كلّ ذلك من غرابة اللغة وتعقيداتها، وأضفى على قصائده بعض السهولة وغدّاها بالحركة التي كانت تتردّد خلال التساؤل واللوم والعتاب وذكر الشباب وإظهار المواجهد.

كما أن الفخر قاده إلى الرثاء، وهو كذلك رثاءٌ تقليدي يركّز على ما وقر في النفوس والأذهان من قيمٍ صحت أصالتها وصفاتٍ ثبت سمّوها وعراققتها، وقد اختص بها عبيد رجال قومه الذين سقطوا في ساحات الوغى دفاعاً عن الحمى والذمار أو الذين قضوا على فراش الموت بعدما أبلوا في حياتهم البلاء العظيم وصنعوا بفعالهم أمجاد القبيلة في كلّ زمانٍ ومكان.

أمّا الهجاء فهو يقوم عند عبيد على التعريض بالخصوم

والأعداء، فيذكر مثالبهم وينتقص مكارمهم، وهو هجاء في مجمله لم ينحدر إلى ذكر الأعراض أو امتهان أسلوب السخرية والاستهزاء، ولكنه كان يركّز على سلب المهجو القيم الأصيلة، ويتتبع مواقع الفشل والعار والهزيمة، فيذكر كلّ ما يشين الخصوم ويلحق العيب والذلّ بهم، منطلقاً من خلاله إلى ذكر أجماد قومه وانتصاراتهم، إنّه هجاء مبنيٌّ على التضاد الذي يظهر الفرق الجليّ بين مكارم قومه ومثالب الخصوم.

وبعد، فهذا هي أهم الموضوعات الشعرية التي تطرّق إليها عبيد، وهي كما رأينا موضوعات ترتبط بالقبيلة وبالذات المكّملة لها، كما أنّها موضوعات لها نظائر في كلّ الشعر الجاهليّ، لأنّ عبيداً لم يكن إلّا ذلك الشاعر الذي لم يفارق لأحب قومه، فكان واحداً منهم، نهج نهجهم واقتفى أثرهم، وحسبُ عبيد من ذلك كله، أنّه استطاع أن يضيف على أشعاره إحساساته الخاصة، وأن يحملها سبب نفسه، وعطاء فكره، وبعد نظره ومنخول رأيه، وأن ينقل في صوره الماديّة كلّ توجعات الإنسان وهمومه التي رافقت وجوده وساورت ذاته ورؤاه.

المعلقة

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ
فَالْقُطَيْبَاتُ فَالذُّنُوبُ^(١)
فَرَائِيسُ ثُعَيْلِبَاتٍ
فَذَاتُ فَرْقَيْنِ فَالْقَلِيبُ^(٢)
فَعَرْدَةُ فَقَفَا جَبْرُ
لَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ غَرِيبُ^(٣)
وَبُدِّلَتْ مِنْهُمْ وَحُوشًا
وَعَيَّرَتْ حَافَهَا الْخُطُوبُ^(٤)
أَرْضُ تَوَارِثُهَا الْجُدُوبُ
فَكُلُّ مَنْ خَلَّهَا مَحْرُوبُ^(٥)

(١) أقفر: خلا. ملحوب: ماء لبني أسد بن خزيمه. القطيبات فالذنوب؛ موضعان.

(٢) راكس: ثعلبات. ذات فرقين: أسماء مواضع. القلب: البئر.

(٣) عروة: هضبة بالمطلاء في أصلها ماء لكعب بن أبي بكر. جبر: جبل في ديار سليم. غريب: أحد.

(٤) وروي الصدر: وبُدِّلَتْ مِنْ أَهْلِهَا وَحُوشًا. الخطوب: الأمور.

(٥) وروي الصدر: «أَرْضُ تَوَارِثُهَا شَعْبٌ» محروب: مسلوب.

إِمَّا قَتِيلًا وَإِمَّا هَلَكًا
 وَالشَّيْبُ شَيْنٌ لِّنَّ يَشِيبُ^(١)
 عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سَرُوبٌ
 كَأَنَّ شَأْنِيهِمَا شَعِيبٌ^(٢)
 وَاهِيَةٌ أَوْ مَعِينٌ مَّعِينٌ
 مِنْ مَضْبُوعٍ دُونَهَا لُحُوبٌ^(٣)
 أَوْ فُلُجٌ وَإِذْ بِبَطْنِ أَرْضٍ
 لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهِ قَسِيبٌ^(٤)
 أَوْ جَدُولٌ فِي ظِلَالِ نَخْلٍ
 لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهَا سُكُوبٌ^(٥)

-
- (١) إِمَّا قَتِيلًا وَإِمَّا هَالِكًا: يريد إما أن يكون ذلك المحروب قتيلاً، وإما أن يكون هالِكًا: ويقصد الشاعر بعجز البيت: إن الذي لم يقتل وعمر حتى شاب. فشبه شَيْنَ له، وكانوا يستحبون أن يموت الرجل وفيه بقية، وقيل أن يفرط به الكبر.
- (٢) سَرُوبٌ: سرب الماء يسرب. الشَّانُ: مجرى الدمع. شعيب: المزاودة المنشقة.
- (٣) واهية: بالية. معين: المعين الذي يأتي على وجه الأرض من ماء. معين: مسرع لهُوب: جمع لُهب. وهو شق الجبل.
- (٤) فُلُجٌ: نهر صغير. قسيب الماء، وألبله، وشجيجه، وعجيجه: صوت جريه.
- (٥) الجدول: النهر الصغير. سكوب: أراد انسكاب، ولكن القافية لم تمكنه من ذلك.

تَصْبِرْ وَأَنْ لَكَ التَّصَابِي
أَنْ وَقَدْ رَاعَكَ المَثِيبُ^(١)
فَإِنْ يَكُنْ حَالٌ أَجْمَعُهَا
فَلَا بَدِيٌّ وَلَا عَجِيبُ^(٢)
أَوْ يَكُ أَقْفَرُ مِنْهَا جَوْهَا
وَعَادَهَا المَحْلُ والجُدُوبُ^(٣)
فَكُلُّ ذِي نَعْمَةٍ مَخْلُوسُ
وَكُلُّ ذِي أَمَلٍ مَكْذُوبُ^(٤)
وَكُلُّ ذِي إِبِلٍ مَوْرُوثُ
وَكُلُّ ذِي سَلْبٍ مَسْلُوبُ^(٥)
وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَزُوبُ
وَعَائِبُ المَوْتِ لَا يَزُوبُ^(٦)

(١) تصبر: تعشق. أن: لك. كيف لك بهذا بعدما صرت شيخاً. راعك: أفرغك.

(٢) ويروى أيضاً:

«إِنْ يَكُنْ حَوْلُ مِنْهَا أَهْلُهَا. بَدِيٌّ: البديء. المبتدأ. أَنْ لَيْسَ أَوَّلُ مَا خَلَا مِنْ الدِّيَارِ».

(٣) جَوْهَا: وسطها. عَادَهَا: أصابها. المَحْلُ: المجدب.

(٤) مَخْلُوسٌ: مسلوب. كُلُّ ذِي أَمَلٍ مَكْذُوبٌ. أَنْ لَا يَنَالُ كُلُّ مَا يُؤْمَلُ بِهِ. وَرَوَيْتُ «مَخْلُوسَهَا».

(٥) وَرَوَيْتُ: «مَوْرُوثَهَا» أَنْ يَوْرُثَهَا غَيْرُهُ. وَمَعْنَى الْعَجْزِ: أَنْ مِنْ كَانَ لَهُ شَيْءٌ سَلَبَهُ مِنْ غَيْرِهِ، فَيُسَلَبُ مِنْهُ أَيْضاً.

(٦) يَزُوبُ: يرجع.

أعاقِرْ مِثْلُ ذَاتِ رَحِمٍ
 أَوْ غَانِمٌ مِثْلُ مَنْ يَحِيبُ^(١)
 مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ يُحْرَمُوهُ
 وَسَائِلُ اللَّهِ لَا يَحِيبُ^(٢)
 بِاللَّهِ يُدْرِكُ كُلَّ خَيْرٍ
 وَالْقَوْلُ فِي بَعْضِهِ تَلْفِيبُ^(٣)
 وَاللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ
 عَلَامٌ مَا أَخْفَتِ الْقُلُوبُ^(٤)
 أَفْلَحَ بِمَا شِئْتَ قَدْ يُبْلَغُ بِالْ
 ضَعْفِ وَقَدْ يُخَدَعُ الْأَرِيبُ^(٥)
 لَا يَعْظُ النَّاسُ مَنْ لَا يَعْظُ الـ
 دُھَرُ وَلَا يَنْفَعُ التَّلْبِيبُ^(٦)

- (١) العاقِرُ من النساء: التي لم تلد. ومن الرمال التي لا تنبت. ذات الرحم: الولود. الغانم: الذي يخرج فيغنم. يحيب: يعود خائباً. أي هل تستوي التي تلد والتي لا تلد؟ وهل يستوي من خرج فغنم، ومن خرج فعاد خائباً؟
- (٢) ويروي هذا البيت، على ما ذهب إليه الأعرابي، ليزيد بن ضبة الثقفى.
- (٣) تلفيب: ضعف.
- (٤) لم يرد هذا البيت في رواية ابن خطاب.
- (٥) أفلح: من الفلاح، وهو البقاء. الأريب: عثر كيف شئت. فلا عليك ألا تبالغ، وقد يخدع العاقل عن عقله.
- (٦) أي من لم يتعظ بالدهر فإن الناس لا يقدرّون على عظته. التلبيب: تكليف اللب من غير طابع ولا غريزة.

إِلَّا سَجِيَّاتِ مَا الْقُلُوبُ
 وَكَمْ يُصَيِّرُنَّ شَانِئًا حَبِيبٌ^(١)
 سَاعِدٌ بِأَرْضٍ إِنْ كُنْتَ فِيهَا
 وَلَا تَقُلْ إِنِّي غَرِيبٌ^(٢)
 قَدْ يَوْصَلُ النَّازِحُ النَّائِي وَقَدْ
 يُقَطِّعُ ذُو السُّهُمَةِ الْقَرِيبُ^(٣)
 وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ فِي تَكْذِيبِ
 طُولِ الْحَيَاةِ لَهُ تَعْذِيبٌ^(٤)
 يَا رَبُّ مَا وَرَدَتْ آجِنُ
 سَبِيلُهُ خَائِفٌ جَدِيبٌ^(٥)
 رِيْشُ الْحَمَامِ عَلَى أَرْجَائِهِ
 لِقَلْبٍ مِنْ خَوْفِهِ وَجِيبٌ^(٦)

(١) السجينة: ترك النفس على هواها. الشانئ: المبغض. أي ما يقع التليب
إلا سجيات القلوب.

(٢) أي ساعد من كنت معهم على جميع الأمور، ولا تعتبر نفسك غريباً عنهم
والأ يخرجوك من ديارهم.

(٣) النازح والنائي واحدٌ. وهو البعيد. السُّهُمة: النصيب.

(٤) المعنى: إن الحياة كذبٌ وطول عذابها على من أعطيها. لما يقاسي من الكبر
وغيره من غير الدهر.

(٥) آجن: متغير. خائف: أراد أنه مخوف المسلك.

(٦) أرجائه: نواحيه. وجيب: خفقان.

قَطَعْتُهُ غَذَوْتُ مُشِجاً
 وصاحبي بادن خَبُوبٌ^(١)
 عيرانة مُوجِدٌ فَقَارُهَا
 كأن حَارَكُهَا كَثِيبٌ^(٢)
 أَخْلَفَ بازلاً سَدِيسٌ
 لا خُفَّةٌ هِيَ وَلَا نَيْبٌ^(٣)
 كأنها مِنْ خَيْرِ غَابٍ
 جَوْنٍ بَصْفَحَتِهِ نَدُوبٌ^(٤)
 أو شَبَبٌ يَرْتَمِي الرُّخَامِي
 تَلْفُهُ شَمَالٌ هَبُوبٌ^(٥)

- (١) مشيجاً؛ مجداً. بادن خبوب: الناقة الضخمة التي تحب في سيرها.
- (٢) قال أبو عمرو: المؤجد التي يكون عظم فقارها واحداً. الفقار: خرز الظهر. حاركها: منسجها. الكثيب: الرمل. وصف حاركها بالملاسة.
- (٣) وروي البيت أيضاً:
- أخلف بازلاً سَدِيسُهَا
 لاحقةٌ هِيَ وَلَا نَيْبٌ
- أخلف: أتى عليها سنة بعدما برئت. فإذا جاوز بعده عام قيل: غلف عام. فالسدیس: السن قبل البازل. والبالز: جل في تاسع سنه. حقة: الحق من الإبل: الداخلة في سنها الرابعة. النيب: النوق الهرمة.
- (٤) غاب: مكان. جون: لها لون أسود وأبيض. ندوب: آثار العض.
- (٥) الشب: الذي قد نم شبابه. الرخامي: نبت. تلفه: يعني تلف الثور. شمال: ريع الشمال. الهبوب: الهابة.

فَذاكَ عَصْرٌ وَقَدْ أَرَانِي
تَحْمِلُنِي نَهْدَةٌ سُرْحُوبٌ^(١)
مُضْبِرٌّ خَلَقَهَا تَضْبِيرًا
يَنْشَقُّ عَنْ وَجْهِهَا السَّبِيبُ^(٢)
زَيْتِيَّةٌ نَائِمٌ عُرُوقُهَا
وَلَيْنٌ أَسْرُهَا رَطِيبٌ^(٣)
كَأَنَّا بِقُوَّةٍ طَلُوبٌ
تَيَبَّسَ فِي وَكْرِهَا الْقُلُوبُ^(٤)
بَاتَتْ عَلَى إِزْمٍ عَذُوبًا
كَأَنَّا شَيْخَةٌ رَقُوبٌ^(٥)
فَأَصْبَحَتْ فِي غَدَاةٍ قُرٌّ
يَسْقُطُ عَنْ رِيشِهَا الضَّرِيبُ^(٦)

-
- (١) ذاك عصر: ذاك دهر، نهدة: فرش. سرحوب: سريعة، ممحة، وقيل: طويلة الظهر.
(٢) مضبر: موثق. السيب: شعر الناصية.
(٣) نائم عرووقها: غير نائمة العروق. أسرها: خلقها. رطيب: متنى.
(٤) القوة الطلوب: العقاب، وسميت بذلك لأنها سريعة التلقي لما تطلب.
القلوب أي قلوب الطير.
(٥) عذوباً: لا تأكل شيئاً، ورقوب: لم يبق لها ولد. والمعنى: أنها باتت لا تأكل
ولا تشرب كأنها عجوز لا تأكل بمنعها الشكل من الطعام والشراب...
(٦) القر: البرد الشديد الضريب: الجليد.

فأبصرت ثعلباً سريعاً
ودونه سببٌ جديب^(١)

فنفضت ريشها وولت
وهي من نهضة قريب^(٢)

فاشتال وارتماً من خسيس
وفعله يفعل المذؤوب^(٣)

فنهضت نحوه حثيثاً
وحرّدت حرّة تسيب^(٤)

(١) ويرى البيت أيضاً:

فأبصرت ثعلباً بعيداً
ودون موقعه شنخوب
السبب: المفاضة. جديب: مجذبة. شنخوب: رأس الجبل.

(٢) لهذا البيت روايتان:

فنفضت ريشها سريعاً
فذاك من نهضة قريب
النهضة: الطيران.

أي نفضت الجليد عن ريشها. وأيضاً:

فنشرت ريشها فانتفضت
ولم تطر نهضتها قريب

(٣) اشتال (الثعلب): رفع ذنبه من حيس العقاب. المذؤوب: الفرع.

(٤) حرّدت: قصدت. تسيب: تناب.

فَدَبٌ مِنْ خَلْقِهَا دَبِيباً
 وَالْعَيْنُ جَلَّاقُهَا مَقْلُوبٌ^(١)
 فَأَدْرَكَتُهُ فَطَرَحَتْهُ
 وَالصَّيْدُ مِنْ تَحْتِهَا مَكْرُوبٌ^(٢)
 فَجَدَّلَتْهُ فَطَرَحَتْهُ
 فَكَذَحَتْ وَجَعَهُ الْجُبُوبُ^(٣)
 فَعَاوَدَتْهُ فَرَقَعَتْهُ
 فَأَرْسَلَتْهُ وَهُوَ مَكْرُوبٌ^(٤)
 يَضْغُو وَغَلَبَهَا فِي دَفِّهِ
 لَا بُدَّ حَيْزُومُهُ مَنَقُوبٌ^(٥)

(١) وروي الصدر: «فَدَبٌ مِنْ رَأْيِهَا دَبِيباً» رَأْيُهَا: أَي رُؤْيُهَا. الخملاق: عرق في العين. وقيل هو جفن العين. أو بياض العين. أَي من الفزع انقلب خملاق عينه.

(٢) وروي الصدور: «فَأَدْرَكَتُهُ فَضَرَجَتْهُ». وفي رواية ابن خطاب أسقط العجز من هذا البيت. والصدر من البيت الذي يليه:
 فَأَدْرَكَتُهُ فَضَرَجَتْهُ

فَكَذَحَتْ وَجَعَهُ الْجُبُوبُ
 (٣) جدلته: طرحته بالجدالة. وهي الأرض. الجبوب: أخارة. وقيل: الأرض الصلبة. وقيل: القطعة من المدر كدح: خدش.

(٤) هذا البيت لم يرد في رواية ابن خطاب. ولا في رواية ابن الأعرابي.
 (٥) الضغاء: هو صوت الثعلب. المخلب: الظفر. دَفِّهِ: جنبه. حيزومه: صدره.

تحليل المعلقة

يبدأ عبيد معلقته بتوجّع ظاهر يلفّ المكان ويحتضنه احتضاناً إنسانياً رقيقاً نكاد نلمح فيه ذوبان المشاعر، وصورة الرثاء الممتزج بالبكاء واللوعة والدموع، وكأن عبيداً في توجّعه على المكان الذي تحوّل إلى قفر، يتوجّع على الإنسان الذي يعزله الموت وحيداً في قفر من نوع آخر، قفر تلفّه الوحشة والرغبة والسكون، ويخيّم عليه الفراغ والصمت والمجهول.

لقد أراد عبيد من خلال ذلك التوجّع أن يوجد روابط مشتركة بين الإنسان والمكان، روابط ربّما فرضتها العادة والتقاليد على الشعراء الجاهليين، فرأينا معظمهم إلا ما ندر، يتوجّع من أجل المكان، ويذرف الدموع على رسومه وأطلاله الدارسة، ويذكر أحبة أقاموا فيه، ومن ثمّ رحلوا عنه انتجاعاً إلى مكان آخر، وانتقالاً أبدياً لا رجوع بعده، ولكن صورة التوجّع عند عبيد تبدو أكثر تجذّراً وأشمل أبعاداً، بحيث يتحوّل المكان عنده إلى أبعد من أرض خالية، أو قفر مجذب قاحل، يتحوّل إلى رمز للوجود الإنساني، رمز للعلاقة الحميمة بين الإنسان والمكان، تلك العلاقة التي أراد لها عبيد أن تتوطّد

وتتجذر وتتحوّل إلى علاقة من نوع آخر، علاقة تجعل المكان مقراً ووطناً، وليس طريقاً إلى رحلة طويلة لا تنتهي فصولها، ولا تعرف الاستقرار الذي باستطاعته أن يولد حالة من الترابط العضوي الفاعل، حالة من التعاطف المتبادل بين المكان والإنسان، بين المادة والروح، تلك الحالة التي لا بدّ منها، ولا غنى لكلا الطرفين عنها، لأنها حالة تفرضها طبيعة الوجود، تلك الطبيعة التي جعلت الأرض رحماً ومقراً، والإنسان سترأ وزينة، وفرضت عليهما تفاعلاً يبني الحياة ويقهر الفراغ والوحشة والسكون، فالأرض بلا إنسان فقر وموت وجهاد وعدم، والإنسان بلا أرض غربة وضياح، وجود ولا هوية، ولذلك كان لا بدّ من التفاعل الذي يجسّد إرادة علوية تريد أن تكتمل دورة الحياة، وأن تنتظم وفق معايير يُظهر انتقاصها خللاً واضحاً، كما يظهر عند عبيد في تلك الأمكنة التي افتقدت الإنسان فتحوّلت إلى قفر تسكنه الوحوش، وتعمره الخطوب والأحزان.

إن تعامل عبيد مع المكان، تعامل إنساني واضح، يهدف إلى خلق مشاعر معينة بين الإنسان والمكان، عن طريق ذلك التوحد الذي يتأتى من خلال الموت، فالمكان بدون الإنسان جهاد لا يتغيّر ولا يتبدل، هو موجود في الزمان، ولكن الزمان يمرّ عليه كما يمرّ على الإنسان الملتحد بالتراب، أيام تروح، وليال تغدو، وسنوات تمرّ دون أن يكون لذلك المرور معنى أو

تأثير أو نتيجة، صوراً من الرتبة المملة المميتة تخيم عليه، وهذه الصور لا يبذلها إلا الإنسان الذي يعمر المكان، ويضفي عليه حياة من حياته، غنى من تشكيلاته وتنوعاته، حركة تتفاعل مع الزمان والمكان لترسم حالة من التجدد الذي يجعل الموت أضعف من أن يحو صورة الحياة المتواجدة إلى ما لا نهاية، من خلال تلاحم المكان والزمان والإنسان، ولذلك كان الاقفار موتاً للمكان عند عبيد حين قال:

أقفر من أهله ملحوب

فالقطبيات فالذنوب

وكان موتاً للإنسان أيضاً في قوله:

أقفر من أهله عبيد

فاليوم لا يبدي ولا يعيد

إنهما ولا شك، صورتان تمثلان وجهاً واحداً للموت، ذلك الموت الذي يصيب الإنسان والمكان معاً، وهذا ما جعل عبيداً في تعامله ذاك، ينطلق من حالة نفسية يحيم عليها الحزن، ويوشحها السواد، ويلفها اللون المأساوي القاتم، ولعل تلك الحالة النفسية لم تكن عنده وليدة خواطر عابرة كتلك الخواطر التي يمكن أن نراها ماثلة في شعر طرفة وزهير وغيرهما من الشعراء الجاهليين، بل هي في نظرنا وليدة تأمل طويل في الحياة والموت، أحس معه عبيد بتفاهة الوجود الذي يقضي عليه الموت في أي لحظة شاء من لحظاته، فراح يرسم صورته بتوَجّع

مأساويّ يكاد يطفئ على كلّ الصور التي حاول أن يجسّد
 حقيقته بأمانةٍ وواقعيةٍ، ولذا كان توجّع عبّيد من الموت عميقاً
 ينتفض له القلب، وترتعد له الفرائص، ويحسّ الإنسان معه
 حيرةً وذهولاً لا يملك إزاءهما إلّا الاستكانة والرضوخ، إنه ولا
 شكّ منتهى التوجّع الإنساني الذي لا يدرك أبعاده إلّا من نظر
 إلى الوجود نظرة متأمّلة تحاول أن تستجلي كنه الحياة،
 وتستكشف واقعها المرّ الأليم، ولذلك راح عبّيد يخاطب في
 الإنسان عقله، مخاطبة الشيخ الوقور الذي تفيض الحكمة على
 لسانه، والرحمة على شفّته، لأنه لا يريد أن يستثير عواطفه،
 فالحديث عن الموت يكفي لاستثارتها، ولكنه يريد أن يفنعه عن
 طريق التمثيل المستوحى من وجوده الذاتي عبر الزمن،
 ذلك الوجود الذي يتغيّر وفق مسارٍ تصاعديٍّ ينتهي إلى نتيجة
 حتمية لا تقبل الجدال والمناقشة، حتى يتأمّل وجوده، ويسلك
 في حياته طريق الخير والصلاح، فالحياة ليست دائمة، بل هي
 كأني وجود آخر، سوف يختلسها الموت كما يختلس المحل
 والجذب رونق المكان وبهجته ونعماءه، يقول عبّيد:

تصبر فأني لك التصابي
 أني وقد راعك المشيب
 فإن يكن حال أجمعها
 فلا بدّي ولا عجيب

أويك أقفر منها جَوْها
وعادها المحلُّ والجدوب
فكلُّ ذي نعمة غلوس
وكلُّ ذي أملٍ مكذوب
وكلُّ ذي إيلٍ موروث
وكلُّ ذي سلبٍ مسلوب
وكلُّ ذي غيبةٍ يؤوب
وغائب الموت لا يؤوبُ

ويعضي عبيد مركزاً على ذلك الاختلاس، فنراه حيناً
يصوّر الموت قنّاصاً ماهراً يرمي الكائنات بسهامٍ لا تخطيء ولا
تنقطع، لأنها سهام دائمة ترافق الزمن في دورانه المستمرّ
المتجدّد الذي يطحن الحياة والأعمار بلا كللٍ ولا فتور، ونراه
حيناً آخر يصوّره بالرّحم العقيم الذي يثد الحياة فيقول:

أعاقِرُ مثل ذات رحمٍ
أم غانمٌ مثل من يخيب

إنها ولا شك صورة معبرة ترسم واقع الوجود بشكل
مبسّطٍ يكاد يُحسُّ ويُلمسُ، فالموتُ رحمٌ عاقر، والحياة رحمٌ
معطاء، ولذا كان الرحم المعطاء من الرحمة، والرحم العاقر
كالفقر واليباب والخراب، إنهما صورتان متناقضتان لوجودٍ

واحد، ولكنها تمثلان سنة الحياة وحقيقتها المبنية على ذلك التنازع المستمر إلى ما لا نهاية.

وهذا التأمل الوجودي عند عبيد لا يقوده إلى العتب الذي نجده عند طرفة وأضرابه، بل يقود إلى السعي الذي لا يشترط فيه النجاح أو الفشل، فالسعي واجب، وعلى المرء أن يسعى مهما كانت النتائج، لأن الحياة لا تبنى إلا بالسعي والعمل، والمجتمع لا يقبل إلا العاملين، فالتوقف موت يصيب الحياة وغربة تقطع أوصالها المتحركة ولذا كان العمل واجباً لقهر ذلك التوقف الذي يُعيق مسيرة الحياة ويمنع تواصلها واستمرارها، كما يقوده إلى التفكير الواقعي الذي يراقب الظواهر الحياتية ويتعمق مساراتها المتباينة، ويربط علائقها بعضها ببعض ليكون منها رأياً ذاتياً يكاد يقترب في مضمونه من آراء أولئك الأحناف الذين عرفت الجزيرة العربية بعضهم، ودوّنت كتب الأدب والتاريخ نتفاً من وعظهم وإرشادهم، وهو في تفكيره ذاك، لا ينسى أن يخص الحياة بنظرة زاهدية نلمح فيها البرم والتأفف، كما نلمح فيها السأم الذي نلقاه عند زهير بن أبي سلمى، ذلك السأم المتولد عن الموت الذي يطحن الناس ويحوّل الحياة إلى مصدرٍ للعذاب والشقاء والألم، كما يحولها إلى خرافة وكذب وخداع، إلى سُرَابٍ مضل وومضٍ سرعان ما يتلاشى ويزول:

والمرء ما عاش في تكذيب
طول الحياة له تعذيب
إن سأم عبيد ليس رفضاً للحياة في حد ذاتها، بل هو في
نظرنا رفض للجانب العاثر فيها، ذلك الجانب الذي يجعل
الإنسان يفقد توازنه، وينساق مع الشهوات والمغريات إلى أبعد
الحدود، فينسى بذلك وجوده الحق المبني أساساً على هذا
التوازن الذي يبدو واضحاً في كل الكائنات والأشياء، في الليل
والنهار، في الخير والشر، في الموت والحياة، في ثنائية متعارضة
تكتمل بها دورة الحياة وفق نظام لا يتغير، يُعتبر الخلل فيه
شططاً أو جموحاً في بعض الأحيان، كما يعتبره في أحيان أخرى
تغلياً لذلك الجانب الخير الذي يساعد على بناء الحياة وتطورها
ودفعها في معارج الرقي والتقدم.

بعد تلك الآراء والمواقف، يعود عبيد ليتحدث عن نفسه
في فترة من فترات حياته، حيث كان يقطع المهامه والفيافي على
ظهر ناقة قوية نشيطة، أو على ظهر فرس سريعة سمحة السير
حادة البصر، كأنها عقابٌ تدرك ما تطلب في سرعة متناهية،
وهي إلى جانب ذلك حذرة متيقظة دائمة الترقب والتأمل
والتحسس، تنقض كما تنقض اللقوة على طريدها، وفي
انقضاضها يكمن الهلاك الذي لا بد منه، لأن المطارد يحس
قدرتها وسرعتها فيمتلكه الذعر، ويوقن بالموت الذي لا يلبث
أن يصيبه فيقضي على رغم الصراخ والألم، ويغرز فيه مخالب

حادثة تخرج الروح من الجسد، وتجعله أسير القوة الهائلة التي لا يمكن معها الحراك أو الإفلات.

تلك هي معلقة عبيد التي تبدو لأول وهلة أنها أغراض متباينة، إلا أن نظرة متأنية إليها تجعلنا ندرك أن هناك غرضاً واحداً حاول عبيد أن يتحدث عنه، وهذا الغرض هو الموت والتوجه منه، ذلك الموت الذي يصيب الإنسان والمكان معاً، ولا يبقى عليهما مهما حاولا توقيه وتجنبه، ولذلك راح عبيد يرسم صوره المأساوية في بناء يمزج الذهن بالواقع، وينم عن خبرة طويلة وفهم حقيقي لواقع الوجود والأشياء، فغدت معلقته بذلك كلا واحداً من بدايتها إلى نهايتها حتى في وصفه للناقة والفرس، وهما الغرضان التقليديان اللذان يمكن أن يحسّ البعض أنهما زجاً على المعلقة زجاً، فإنه فيهما يظهر تفكيراً في الموت وخوفاً منه، يتمثلان في ذلك الخفق والوجيب اللذين لا يتأنيان إلا عنه، يقول عبيد:

بل ربّ ماءٍ وردت آجن
سبيله خائفٌ جديب
ريش الحمام على أرجائه
للقب من خوفه وجيب

أليس ذلك الماء الأجن الذي تغير من حال إلى حال، يمثل هذه الحياة المتغيرة التي لا تثبت على قرار ولا تستقر على

وضع؟ طفولة فشاب فكهولة فموت ففناء، أليس في ذلك
 التغير مدعاة للهَمِّ والقلق ومبعث للحزن والتوجع؟ وهل تلك
 اللقوة التي شبَّ بها فرسه بعيدة في أوصافها عن الموت الذي
 يترقَّب الكائنات، وينتظر اللحظة المواتية للانقضاء
 والإيقاع؟ وهل صورة الثعلب المسكين بعيدة عن صورة
 الإنسان الذي يحاول جهده وبأساليب شتى، أن يحذر الموت أو
 يهرب منه، ولكنَّ الموت ليس بغافلٍ عنه، فهو دائم الترقُّب
 له، يكاد يعدُّ له حركاته، ويحصى عليه أنفاسه.

إنَّ عبيداً لم يَصوِّر كل ذلك في معلقته من أجل أن يظهر
 شجاعته أو قوَّة فرسه، لأن سياق الأبيات يأبى أن نذهب إلَّا
 حيث شاء عبيد لنا الذهاب، فإيراده هاتين الصورتين ليس إلَّا
 تمثيلاً لصورة الموت الذي تحفِّق له القلوب، وترتعد منه
 الفرائص، ولنقرأ معاً وصفه لما أحسَّ ذلك الثعلب الضعيف
 عندما أحسَّ باللقوة تطارده.

يدب من حُسَّها ديباً
 والعين حملاقها مقلوبُ
 فنهضت نحوه حثيئةُ
 وحردت حردةُ تسيب
 فاشتال وارتاع من حسيها
 وفعله يفعل المذؤوب

فأدركتَه فطرَحتهُ
والصَّيد من تحتها مكروب
فجدَلته فطرَحته
فكذحت وجهه الجبوب
فعادته فرَفَعته
فأرسلته وهو مكروب
يضغو ومخْلِبهَا في دَفه
لا بدَّ حيزومه منقوب

إنَّ قراءةً متأنيةً لهذه الأبيات تثبت ما ذهبنا إليه، لأننا من خلالها نستطيع أن نتبين وصفاً حسياً للحظة الموت الرهيبة، تلك اللحظة التي تخلق حالةً من الرعب والانهيار، وتولد في النفس شعوراً بالأسى والمرارة، لا يمتلك الإنسان إزاءهما إلا التضعُّع والانكسار، ويبدو أنَّ عبيداً قد أحسَّ بهول تلك اللحظة من خلال مشاهداتٍ حسيَّةٍ وتأمّلاتٍ فكريةٍ فراح يمثّل لها في أبياته تلك، ويصوّر أبعادها الخائفة تصويراً ينمُّ عن معاناةٍ طويلةٍ أحسَّ معها بفضاعة الموت الذي يزهق الأرواح، وينقضُّ على سائر الكائنات ليتخطفها من وجودها ويرسلها في رحلةٍ طويلةٍ إلى العدم والفناء، ولذا فإن جزع عبيد في أبياته لم يكن من أجل ثعلبٍ أنشبت به المنية أظفارها، بل كان من أجل الإنسان الذي لا يختلف في وجوده عنه، ولا يتعد في مصيره عن مصيره ذاك.

أما أسلوب عبيد في قصيدته، فقد طغى عليه الطابع العقلي الذي أفقدها جانباً مهماً من جوانب الشعر، وهو جانب المشاعر التي تضيف على العمل الشعري الحرارة والحيوية والانسياب، ولذا بدت القصيدة أقرب إلى الوعظ والارشاد والنصيحة، منها إلى الشعر الحقيقي الفذ الذي يتدفق بالمشاعر والصور والألوان، رغم أن الموضوع الذي تحدثت عنه، موضوعٌ يخص كل إنسان، ويتطلب سوحاً نفسياً عميقاً في عالم الرؤى والمشاعر والتأملات، إلا أن عبيداً اكتفى من الموضوع بالاشياء الحسية الظاهرة، ولم يستطع أن يحوله إلى تجربة تتعمق الكون والوجود، وتسير ذلك الجانب الغامض من أسرار الذات والحياة، ولذا ظلت تجربة عبيد قاصرة عن تناول تلك الأبعاد، ومفتقرة إلى ذلك الجانب الشمولي الذي لا يترأى إلا لدوي البصيرة والنفاذ، وبدت أقرب إلى النظم الذي يتوخى نقل الأشياء وصوغ حقائقها المجردة في أسلوب تقريرى لا يتجاوز في رؤياه، أبعد مما تراه العين، وقد كان للوزن الشعري «الرجز» الذي هو من أكثر البحور عللاً وزخافات، أثره في إضفاء طابع التقريرية والنثرية على القصيدة، بحيث أفقدها ذلك النغم الموسيقي الذي يكسب العمل الشعري حركةً وانسياباً يخففان من ذلك القصور التعبيري الذي نلمحه أحياناً في نقل التجارب إلى الآخرين.

وهكذا فقد تضافرت عوامل عدة على قصيدة عبيد

لتبعتها عن العمل الشعريّ المميّز، ولتجعلها من الأعمال
الشعرية التي لم ترض أذواق النقاد قدماء ومحدثين، فحكموا
عليها بالقبح وسوء التركيب لأنها كما ذكر صاحب العمدة:
«كادت أن تكون كلاماً غير موزون بعلّة ولا غيرها، حتى قال
بعض الناس: إنّها خطبة ارتجلها فاتزن له أكثرها»^(١).

مع ذلك كلّ، فإننا لن نظلم عبيداً كلّ الظلم، حسبه أنه
استطاع في فترة مبكرة من ذلك الزمن، أن يكون الشاعر الذي
أكثر التأمل في الموت والحياة، وأختصّ الوجود بنظرات
فاحصة، شكلت في ما حملته من معاناة وأبعاد نقطة هامة في
فهم طبيعة الوجود الإنساني الذي لم يتكشف إلاّ لذوي البصائر
وأصحاب العقول.

(١) العمدة ج ١ ص ١٠٢.

القصائد العامة

شعر عبید

إذا كنا في حديثنا على معلقة عبید قد أشرنا إلى بعض الاضطراب البنائي الذي جعل النقاد يحكمون على أن تلك القصيدة أشبه ما تكون بخطبة ارتجلها فاتزن له أكثرها، فإن هذا الحكم لا ينطبق على سائر شعره بوجه عام، فعبید كغيره من الشعراء الجاهليين الذين ضمت دواوينهم القصائد المتنوعة التي اشتملت على أغراض متعددة وأوزان مختلفة وصور متباينة، ولا يمكن أن يكون الحكم عليها جميعها من خلال عمل شعري واحد، لأن مثل ذلك الحكم يبقى قاصراً عن الامام الكلي بأعمال الشاعر، بل ومتعجلاً تعوزه الدقة والأمانة، لأن التجارب الشعرية تتباين عند الشعراء، ومن ثم يختلف الشعر في تلك التجارب التي قد تكون موفقة في بعضها، وقد لا يحالفها التوفيق في بعضها الآخر، وهذا هو حال جميع الشعراء الذين نرى في دواوينهم الجيد والردى، والحسن والقبیح، والرقیق والغليظ، كل ذلك يعود إلى التجارب التي انتجت ذلك الشعر، وإلى حظها من الاختيار والنضوج، أو الافتعال وعدم الاكتمال.

وعبيد في سائر تجاربه الشعرية لم يخرج عن الخط الذي شارك في رسمه مع غيره من الشعراء القدماء، والذي صار سنة متبعة، وتقليداً عاماً لا يمكن الخروج عليه، بل نراه في كل تجاربه الشعرية يحافظ على ذلك الخط الذي سمي «عامود الشعر» فإذا ما اطلعت على مطولة من قصائده، فإنك ستجد لها مساراً يمكن أن تجده في أكثر منظومات الشعر العربي في الجاهلية، وحديثاً يتدلى بالوقوف على الرسوم والاطلال وديار الأحبة، ومن ثم ينتقل ليذكر الظعائن المرتحلة التي يروح الشاعر معدداً أوصافها ذاكراً لهوه وحبّه وتباريح هواه، متعرّضاً إلى خصومه وإلى ما يخالج مشاعره أحياناً من همّ وقلق وأفكار، فتراه مثلاً يتأسف على الشباب الذاهب وأويقات الحب، والآيام اللاهية التي كان يقضيها على ظهر ناقته أو على متن فرسه مصطاداً ومحارباً، ويرسل بين الفينة والفينة حكماً تحمل آراءه وخبراته في الحياة والوجود.

هكذا كانت القصيدة عند عبيد وعند أضرابه من شعراء الجاهلية، أغراضاً متعدّدة لا يربط بينها أيّ رابط، فهي لا تمثل تجربة شعرية بالمعنى الذي نفهمه اليوم، ذلك المعنى الذي يجعل من القصيدة موضوعاً واحداً ويحوّلها إلى بنية حيّة متكاملة لها بداية ومدارج ترتقي بنا وفق نظام متسق، وسياق محكم، وأجزاء متعاونة تقودنا إلى نهاية تمثل اكتمال التجربة وتظهر وحدتها وغناها، فلا فجوات ولا تعدد أغراض، ولا استقلالية

أبيات، بل صورٌ تفيض بالمشاعر وتزخر بالحركة والألوان، وتنقل حاجات النفس في صدقٍ وتوازن وتلاحمٍ بين كل العناصر المكوّنة.

أما أسلوب عبيد في أشعاره فهو لا يسير على وتيرة واحدة وإذا كنا في معلقته قد ألفيناه قلقاً مضطرباً يشوبه الوهن والتفكك، رغم أنه يتحدث فيها عن أشياء خاصة لها وشائج في النفس وأبعاد في الرؤى والتفكير، ويمكن لها أن تؤلف تجربة غنية زاخرة بالصور والأبعاد، إلا أنه كان قاصراً عن استيعاب تلك التجربة واستيفائها من كل الحوالب البنائية التي تسموها إلى مرتبة الشعر الجيد، وليس ذلك معناه أنها كانت تجربة مبتورة أو مفتعلة، فهي على العكس من ذلك، وتمثل في رأينا تجربة أصيلة، إلا أن التوفيق لم يحالفها، لأنها افتقدت بعض العناصر التي تسهم في انجاح التجربة، وتضفي على صياغتها المتعة والجمال، فاستعمال الشاعر «لمجزوء البسيط» بعلمه وزحافاته المتعددة جعل التجربة تتخبط داخل قيودٍ لم تسمح لها بحرية الانطلاق للتعبير عن مكنونات النفس، وحصرتها ضمن تفعيلات متباعدة كنا نراها تطول وتقصّر في بعض المواضع، وهذا ما يحدث شيئاً من الخلل الموسيقي الذي كان يتقطع لاهتاً مع انتهاء الشطور والاضطرار إلى التقفية، فليست كل الأوزان في رأينا قادرة على توفير النغم، لأن بعضها قد لا يتناسب مع التجارب التي تتطلب أوزاناً تسمح لها بالانسياب

والسروح، ولا تقطعها عن ذلك الانشال والتدفق، وبالتالي فإن ذلك «البحر» لم يكن قادراً على ترك التجربة الشعرية تجري دون عوائق، ومن ثم قيّد امتدادها وجريانها، وضغط عليها الأنفاس فاضطربت أوصالها وتضعض بناؤها وحال دون اكتمالها وإظهارها بالشكل الذي يتناسب مع مضمونها الغني بالرؤى والأبعاد، فعنصر الوزن في القصيدة من العناصر الهامة التي يخلق فيها الاتزان ويوجد النغم، ويحقق لها حرية التعبير عن المشاعر ضمن تموجات نغمية ثابتة «يخفق معها القلب، ويتركز السمع تركّزاً شديداً، فليس هناك أي اهتزاز غريب عن النغم، وليس هناك أي نشاز أو تشويش، إنه نظام دقيق يعبر في استيفاء بالغ عن انفعال الشاعر»^(١).

فإذا كان التوفيق لم يحالف عبداً في معلقته للأسباب التي ذكرناها فإننا نجد أن التوفيق قد حالفه في غيرها من القصائد بحيث نرى أساليب قد تضافرت فيها العناصر البنائية، واتحدت بعضها مع بعض لتشكّل في النهاية عملاً شعرياً مليئاً بالنغم والصور والألوان، فاسمعه يقول^(٢):

تغيّرت الدّيار بذّي الدّفين
فأودية اللّوى فرمال لين^(٣)

(١) شوقي ضيف: في النقد الأدبي ص ١٠١ - دار المعارف.

(٢) ديوانه ص ١٤٥ - ١٤٧.

(٣) الأسماء التي ذكرها هي أسماء المواضع.

فحرجني ذروة فقفا ذبال
 يعفني آية سلف السنين^(١)
 تبصر صاحبي أترى حولاً
 تساق كأنها عوم السفين^(٢)
 جعلن الفج من ركك شمالاً
 ونكبن الطوي عن اليمين^(٣)
 ألا عبت عليّ اليوم عرسي
 وقد هبت بليل تشتكيني
 فقالت لي: كبرت! فقلت: حقاً
 لقد أخلفت حيناً بعد حين^(٤)
 تربي آية الاعراض منها
 وفظت في المقالة بعد لين^(٥)
 ومطت حاجبها أن رأني
 كبرت وأن قد ابيضت قروني^(٦)

(١) يعفني: يححو، والسلف: الماضي.

(٢) شبه سير الأظمان بعوم السفن.

(٣) في هذا البيت يرسم مخططاً لسير حول الأحباب، والفج: الطريق الواسع.

(٤) أخلفت حيناً بعد حين: أي مضت عليك سنون بعد سنين.

(٥) الاعراض: الصدود، وفظت: غلظت وساء خلقها.

(٦) مطت حاجبها: أي تتهها أو مدتها، والقرون: ذوائبه، وشعره.

فقلت لها رويدك بعض عتبي
 فلاني لا أرى أن تزدهيني^(١)
 وعيشي بالذي يغنيك، حتى
 إذا ما شئت أن تنأي فبيني^(٢)
 فإن يك فاتني أسفاً شبابي
 وأضحى الرأس مني كاللجين^(٣)
 وكان اللهو حالفني زماناً
 فأضحى اليوم منقطع القرين
 فقد ألجُ الحباء على العذارى
 كأن عيونهن عيون عين^(٤)
 يملن عليّ بالأقرب طوراً
 وبالأجساد كالرِيط المصون^(٥)
 وأسمر قد نصبت لذي سناء
 يرى مني محافظة اليقين^(٦)

(١) تزدهيني: تستحقين بي.

(٢) ببني: أي ابتعدي.

(٣) اللجين: الفضة، يشبه به شعر رأسه الذي اعتراه الشيب.

(٤) ألج: أدخل، والحباء: الخيمة، والعين: المها، أو يقر الوحش.

(٥) الأقرب: الخواصر، والرِيط: جمع رِيطَة وهي الملحفة.

(٦) الأسمر: الرمح، والسناء: الرفعة.

يحاول أن يقوم وقد مضته
 مغابنةً بذِي خُرُصٍ قَتِينٍ^(١)
 إذا ما عادَ منها نساءً
 صفحن الدَّمعَ من بعد الرّنينِ^(٢)
 وخرقٍ قد ذعرت الجون فيه
 على أدماء كالعير الشّنونِ^(٣)

إنّا في هذه القصيدة التي لا تختلف في أغراضها عن
 مجمل شعره، نرى النغم يتدفق من السطور التي تنساب في رقةٍ
 ولين، وتجري إلى حيث يجب أن تجري دون عوائق وسدود،
 حتى تلك الأسماء التي ذكرها لكثير من الأماكن نراها تنضح
 بالموسيقى وتتألف مع النغم فلا نشاز ولا غلظة، بل تألف
 وأنساق، وحركة ورشاقة، ومتعة وجمال، وقد أسهم البحر
 الشعري «الوافر» في توفير ذلك الانسياب وإضفاء الحركة
 النامية التي رافقت القصيدة من بدايتها إلى نهايتها، كما أنّ
 حرف الروي «النون» المشبع بالكسر، والمليء بالليونة والنغم،
 قد ساعد على ذلك الانسياب وجعله يمتدّ برقةٍ ليتلاشى دون

(١) أن يقوم: أن ينهض من الطعنة، مضته: نفذت منه، ومغابنة: من غبن
 الثوب: إذا طواه ثمّ خاطه، وأراد هنا الطعنة تغبن جلد الملعون، وذو
 خُرُص: الدرع ذو الحلقات، والقَتِين: السنان.

(٢) عادَ: زاره، وصفحن الدَّمع: صفحته وذرقته، والرّنين: البكاء.

(٣) الخرق: القفر، والجون: البيض، أراد بقر الوحش والغزلان، والأدماء:
 الناقة السمراء والشّنون: السمين والمهزول.

عنفٍ أو ضجيج مع تلاشي الأنفاس الهادئة، ولا ننسى في هذا المجال دور الالفاظ التي جاءت في حديثه عن نفسه وهواه رقيقة عذبة بعيدة في أكثرها عن الغرابة والتعقيد، كما نلفت النظر إلى ذلك الحوار الذي زاد من الحركة النغمية، وانسجم بشكل رائع مع سائر العناصر البنائية.

لقد استطاع عبيد في هذه الأبيات أن يعبر عن مشاعره بأسلوبٍ سمحٍ لين، يهزّ المشاعر ويعمر القلوب، ويتركنا نسرح معه في ذكريات الحب والعتاب والشباب، سروحاً ممتعاً لا نجد فيه إلّا ما يخالط النفس ويرهف السمع، ويشير جواً من الأنس والارتياح، وهكذا، نجد أن أسلوب عبيد يختلف من قصيدة لأخرى، وفي القصيدة الواحدة أحياناً، فهو عندما يتحدّث عن ناقته وحصانه وحروبه وأسفاره، يبدو جافاً فيه غلظة وغرابة، لأنه يستعير له من بيئته القاسية المجذبة مادة صوره، أمّا عندما يتحدّث عن مشاعره الخاصة وذكريات حبه ولهوه وشبابه، فإن أسلوبه يرقّ، وتعبيره تسهل وتلين. وهذا ما نراه ماثلاً في هذه القصيدة وفي القصائد المماثلة التي تتحدّث عن التجارب الخاصة التي تنبع من الذات، ونستمدّ صورها ممّا هذبته الحياة ورققته الأحاسيس، وشمله الشيوخ والانتشار، فلا غرابة عندئذ ولا غلظة، بل لطافة ورقة وجمال...

وإذا حاولنا أن نرسم بعض الأطر لصور عبيد الشعرية

فما علينا إلا أن نستعرض بعض النماذج منها لنقف على مقوماتها الفنية، ولنتعرف على مكانة عبيد الشعرية التي يرى «ليال Lyal» في مقدمته لديوان عبيد الذي حققه ونشره، أنها «مكانة خاصة لها خطرهما من وجوه عدة، من وجهٍ فني لوضعه بين شعراء الجاهلية، ولكونه مرحلة انتقال بين الشعر البادئ الذي لم تستو له القيم الفنية، وتطبّق عليه المأثورات والقواعد الشعرية، وبين الشعر الناضج الذي نعرفه، ومن وجهٍ تاريخي إذ يلقي شعره عدّة أضواء على أحداث شبه الجزيرة العربية في عصره»^(١).

والحقيقة أن شعر عبيد يمثّل تلك المرحلة المتقدمة من الشعر الجاهلي، ففيه نجد بداية انتقال الشعر من مرحلة إلى مرحلة، كما نجد فيه بداية النضوج التي تابعت مسيرتها فحققت نوعاً من الاستواء والفنية عند امرئ القيس والنابعة وزهير بن أبي سلمى، ولعلّ عبيداً في بعض قصائده لم يقصّر عن أترابه الذين ذكرنا، وخصوصاً في تلك القصائد التي وصف فيها البرق والسحاب والمطر، أو التي أودعها تجارب عمره المديد فجاءت زاحرة بالصّور الحسيّة الحية التي نقلت المشاهد بأسلوب جنزلي خالٍ من الصنعة والتعقيد مكتفٍ باللفظ اليسير والتشابه القليلة التي أبرزت ألوان الصورة،

(١) ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق د. حسين نصار ص ٥ ط ١ مطبعة مصطفى الحلبي.

وأدتها أداءً بسيطاً يحمل كلّ الاحساسات والانفعالات الطبيعية التي لم تتعمّق التفاصيل، ولم تحتج إلى عناء فكر أو إلى صور مركّبة يضاف بعضها إلى بعض ليؤلف صورة تامة متشابكة الألوان والجزئيات، وأمثلة تلك الصورة البسيطة الأداء كثيرة عند عبيد، ونرى ذلك في الحديث عن قومه حيث يقول^(١).

إِنَّا إِنَّمَا خَلَقْنَا رُؤُوساً
مِّن يَسْوَى الرُّؤُوسِ بِالْأَذْنَابِ
لَا نَقِي بِالْأَحْسَابِ مَالاً وَلَكِن
نَجْعَلُ الْمَالَ جَنَّةَ الْأَحْسَابِ
وَنَصُدُّ الْأَعْدَاءَ عَنَّا بِضَرْبِ
ذِي خِذَامٍ وَطَعْنِنَا بِالْحِرَابِ^(٢)
وَإِذَا الْخَيْلُ شَمَرَتْ فِي سِنَا الْحَرْبِ
وَصَارَ الْغِبَارُ فَوْقَ الذُّؤَابِ^(٣)
وَاسْتَجَارَتْ بِنَا الْخَيْلُ عَجَالاً
مَشْقَلَاتِ الْمَتُونِ وَالْأَصْلَابِ
مَصْفِيَاتِ الْخُدُودِ شَعَثِ النَّوَاصِي
فِي شَهَاطِيطِ غَارَةِ أُسْرَابِ^(٤)

(١) ديوان عبيد ص ٤٢ - ٤٣ دار صادر.

(٢) ذي خذام: أي يقطع بسرعة، والخذام القطع.

(٣) الذؤاب: النواحي جمع ذؤابة: وهي شعر الناصية.

(٤) مصفيات: مائلات، والشهاطيط: الفرق والأسراب.

سرعات كأنهن ضراء

سمعت صوت هاتف كلاب^(١)

لاحقات البطون يصهلن فخرأ

قد حوين النهاب بعد النهاب^(٢)

فعبيد هنا يتحدث عن قومه، ويحاول أن يرسم لهم صورة تبين عزتهم وقوتهم، فعمد إلى ذكر تفاصيل تفيد الغرض، لولكنها تفاصيل ليست بالجديدة المبتكرة، لأننا نجد لها مثيلاً عند أكثر شعراء الجاهلية، وهي مستمدة من البيئة التي شاعت فيها قيمٌ معنوية ومادية معينة، وجد أولئك القوم بامتلاكها امتلاك السؤدد والشرف، فأسبغها عبيد على قومه، فإذا هم الرؤوس وغيرهم الأذنان، إشارة إلى تقدّمهم الناس واستباقهم المكارم، كما أنهم يجعلون أموالهم درءاً لأحسابهم وأعراضهم، إشارة منه إلى كرمهم واعتزازهم بأنفسهم وقبيلهم، ثم يركّز بعد ذلك على قوتهم القادرة على صيد الأعداء، وعلى قدراتهم الحربية التي اكتسبوها بعد معارك متعدّدة، فجعلتهم أبطالاً مجرّبين يمتطون الخيول الضامرة القوية التي يخوضون بها غمار المعارك في بأس وشدة، ويقتحمون بها صفوف الأعداء في سرعة شبيها بسرعة الكلاب التي تطارد

(١) الضراء: الكلاب المتعودّة الصيد.

(٢) لاحقات البطون: ضامرات.

الفرائس للإيقاع بها، ثم يختتم تلك الصورة بخاتمة نلمح فيها مسحة من الجمال، حيث جعل الخيل تسهل فخرًا بتحقيق الانتصار وإحراز السلب والغنائم في كل مرة، وهذا ما أضفى على الصورة حركة وجدّة، إذ استطاع عبّيد أن يقرن بين الصهيل والانتصار، وهذا الصهيل ليس ببعيدٍ عن فرح الإنسان الذي يصدر أصواتاً عالية في ساعات نشوته وفوزه، فلولا ذلك التشبيه، وتلك الاستعارة في صهيل الخيل، لظلت الصورة في بنائها مقتصره على الإيماءات اللفظية، أو ما يمكن تسميته الأداء اللفظي البسيط، الذي لا يلجأ إلى الصنعة، بل «يعتمد أكثر ما يعتمد على مكنونات الألفاظ، وما يمكن أن تؤدّيه هذه المكنونات من تعبير»^(١).

ونرى كذلك أمثال هذه الصورة في حديثه عن ناقته حيث يقول^(٢).

وكان أقتادي تَضْمَن نَسْعَها
من وحش أورالٍ هَبِيطٌ مَفْرُدٌ^(٣)

(١) محمد زكي العشماوي: النابغة الذبياني ص ١٩٩ دار المعارف.

(٢) الديوان ص ٥٩ - ٦١.

(٣) الأقتاد: خشب الرّحل، والنّسع: جبل تشدّ به الرّحال، والهبط: الثور المهزول.

بانَّت عليه ليلة رجبية
 نصباً تسحُّ الماء أو هي أسود^(١)
 ينفي بأطراف الآلاء شفيفها
 ففدا وكلّ خصي عضو يرعد^(٢)
 كالكوكب الذريء يشرق متنه
 خرصاً خيصاً صلبه يتأود^(٣)
 في روضة ثلج الربيع قرارها
 مولية لم يستطعها الرؤد^(٤)
 وبدا لكوكبها صعيدٌ مثل ما
 ريح العبير على الملب الأصفد^(٥)
 وإذا سريت سرت أمونا رسالة
 وإذا تكلفها المواجهر تُصخذ^(٦)

- (١) رجبية: أي ذات ريج، والنصب: البلاء.
 (٢) الآلاء: شجر دائم الخضرة، والشفيف: الريح الباردة، والخصيل: كلّ لحم مجتمع.
 (٣) الذريء: أي الذريء المتألى، والمتن: الظهر، والخرص: الجائع المورور، والخصيص: الضامر.
 (٤) ثلج الربيع قرارها: أي أنزل فيه الثلج، ومولية: معطورة، والرؤد: المرتادون.
 (٥) الكوكب: الماء الذي في وسطها، والصعيد: التراب، وريح العبير: نفع والملب: الطيب، والأصفد: الجيد نعت للعبير.
 (٦) الأمون: الناقة المأمونة العشار، والرسلة: السهلة السير، وتصخذ: تجبّد وتحمل.

وإلى شراحيل الهمام بنصره
نصر الأشياء سرّيه مُسترغذ^(١)
من سيبه سحّ الفرات وحمله
يزن الجبال ونيله لا ينفذ^(٢)

ففي هذه الأبيات يحاول أن يرسم صورة لناقته، فإذا به يشبهها بثور وحشي، يقطع الأرض من مكانٍ إلى مكانٍ بسرعة وقوة ليصل إلى غايته التي تحمّل من أجلها التعب والعناء، وبات من أجلها ليلة مظلمة باردة ارتعدت فيها فرائصه، واحتمى من صقيعها وريحها بأوراق الشجر ليخفف عنه بعض ما عاناه من شدّتها، وبدا في ظلامها كأنه كوكبٌ دري يرتجف من الجوع والقرّ داخل روضةٍ زادها مطر الربيع وثلجه غمّاء وبهجة وروائح طيبة، فأمل بوصوله إليها غداً فيه الرغد والاكتفاء، فعلى مثل تلك الناقة القويّة الضامرة التي تتحمّل سير السرى وسير الهواجر بسهولة وثبات يصل عبيد إلى غايته، إلى شراحيل الهمام الذي يسيل عطاؤه كالنهر ويتدفّق تدفّق الفرات الذي لا ينفذ ماؤه.

فعبيد في هذه الأبيات التي يرسم فيها صورة الثور وتكبّده المشقات، إنّما يرسم صورة نفسه التي اعتلت الاقتاد،

(١) الأشياء: النخل الصغار، والسريّ: النهر.

(٢) السيب: العطاء، وسحّ الفرات: تدفّقه.

وتوجّهت إلى شراحيل الغاية، بينما كانت الناقّة الوسيلة، فليست الروضة العطرة الغناء المعشبة التي كانت للثور مقصداً إلاّ شراحيل نفسه الذي تكبّد عبئاً للوصول إليه ما تكبّد ذلك الثور من عناء ومشقة للوصول إلى روضته، فين عبئاً والثور علائق تماثل، وبين الروضة وشراحيل تشابه معطيات، هكذا هو الشعر الجاهلي في بداياته الأولى، إنّه يحاول أن يرسم الصور من خلال التشابه الحسيّة والقرائن المادية المستوحاة من البيئة الضيقة ليؤلف منها أجزاء الصورة النفسية، أو ما يمكن أن نسميه صورة الرغبات والأمانى، حيث يعتمد في إبرازها كلياً على المدلولات المادية البسيطة التي تشتد على مكنونات الألفاظ، وعلى قدراتها الإيحائية الشفافة في الربط بين الأجزاء والتفاصيل، فليس هناك صوراً ذهنية مركبة، وليس هناك صنعة شعرية معقدة بل شعرٌ فطريٌّ يستعير من الطبيعة الماديّة ألوان صورته وموادها.

وإذا حاولنا أن نقارن بين صورة عبيد في مدحه لشراحيل هذا، وصورة النابغة في مدحه للنعمان حيث يقول^(١).

فما الفرات إذا هبّ الرّيح له
ترمي أواديه العبرين بالزبد^(٢)

(١) ديوان النابغة الذبياني ص ٣٦/٣٧ دار صادر.

(٢) العبرين: الناحيتين، والأواذي: الأمواج، والزبد: ما يطرحه الموج في اضطرابه.

يُمْدَهُ كُلُّ وادٍ مترع لجب
 فيه ركامٌ من الينبوت والخضد^(١)
 يظلُّ من خوفه الملاح معتصماً
 بالخيزرانة بعد الأين والنجد^(٢)
 يوماً بأجود منه سيب نافلة
 ولا يحول عطاء اليوم دون غد^(٣)

فإننا نلاحظ دون عناء أنَّ الصورة عند عبيد كانت
 فطرية تعتمد على الخيال الحسي الذي يقارن بين النهر والممدوح
 وصولاً إلى خلق حالة من التشابه أو التماثل في الفعل، بينما
 كانت الصورة عند النابغة أكثر شمولاً بحيث تعددت أجزاؤها
 المكوّنة، وظهر عليها أثر الصنعة الشعرية التي تتوسّع في الربط
 بين العلائق لتؤدّي هدفاً مطلوباً وترسم حالة تعبيرية تحاول أن
 تلمّ بأكثر الخطوط وصولاً إلى الاكتمال الذي يرضي الممدوح
 ويتفصّل بجهد كلّ العناصر الفنيّة الضرورية لذلك..

ولو استمرينا في تتبّع صور عبيد في أشعاره، فإننا سنلغي أن
 أكثر صوره أو كلّها تقريباً مستمدة من البيئة المادية، وقائمة على

(١) المترع: المملوء، واللجب: الصاحب، والينبوت: شجر الخشخاش،
 والخضد: ما خضد وتكرّر.

(٢) الخيزرانة: السكان وهو ذنب السفينة، والأين: الإعياء، والنجد: العرق
 والكرب.

(٣) السيب: العطاء، والنافلة: الزيادة.

الخيال الحسي الذي يستقي صورته عن طريق الحواس، فاسمعه
في هذه المقطوعة التي يفتخر بها في شعره، ويبتدئها بوصف
المطر الذي أكثر من وصفه وأجاد فيه، يقول عبيد^(١).

أرقتُ لضوءِ برقي في نِشاص
تلالاً في مملأة غِصاص^(٢)
لواقحِ دُلجٍ بالماءِ سحِمِ
تُثجُّ الماءِ من خللِ الخِصاص^(٣)
سحابِ ذاتِ أسحِمِ مكفهرُ
توحي الأرضِ قطراً ذا افتِخاص^(٤)
تألف فاستوى طبقاً دكاكاً
مُحَيلاً دونِ مشعِبِهِ نِواصِ^(٥)
كليلِ مظلمِ الحِجراتِ داجِ
بهِيمِ أو كبحرِ ذي بِواصِ^(٦)

(١) الديوان ص ٨٤/٨٥.

(٢) النشاص: السحاب المرتفع المتراكم، والمملأة: السحب الممطرة،
والغصاص: من غصن الطعام والشراب.

(٣) اللواقح: الرياح، والدُلج: الكثيرة الماء، والسحِم: السود، وتُثجُّ: تسيل،
والخِصاص: خروق الغيم.

(٤) توحي: تعجل، وقوله: ذا افتِخاص: أي أنه لقوته يقلب التراب ويكشفه.

(٥) الدكاك: المستوية، والمحيل: الذي أتى عليه حول، والمثعب: مجرى الماء،
والنواصي: مصدر ناوصه: أي ناوشه ومارسه.

(٦) الداجي: المظلم، والبواص: المتغير في لونه.

كَأَن تَبْسُمُ الْأَنْوَاءَ فِيهِ
 إِذَا مَا انْكَلَّ عَنْ لَهْقٍ مَصَاصٍ^(١)
 وَلاَحَ بِهَا تَبْسُمُ وَاضِحَاتٍ
 يَزِينُ صَفَائِحَ الْخُورِ الْقَلَاصِ^(٢)
 سَلِ الشُّعْرَاءَ هَلْ سَبَحُوا كَسْبِحِي
 بِحُورِ الشُّعْرِ أَوْ غَاصُوا مَغَاصِي

ففي هذه المقطوعة نجد عبيداً يرسم صورة للمطر ويلمُّ بأكثر جزئياتها بحيث نراه يتناول البرق والسحب والرياح وتكاثف الغيوم بعضها فوق بعض وصولاً إلى تدفق المطر الذي يربط بين انهماره وانهمار شعره، فكلاهما بحاجة إلى بواعث ومعطيات، هذا بحاجة إلى الريح والبرق والرعد والسحب، وذاك بحاجة إلى الانفعالات والأحاسيس والعواطف، إنها ولا شك مقارنة عجبية بين المطر والشعر، بين انفعالات الطبيعة وانفعالات النفس، وقد استطاع عبيد أن ينقل إلينا تلك الصورة نقلاً مادياً قائماً على التمثيل الحسي الذي كان الأساس في كل عمل شعري عنده، ولكنه هنا ألبسه صورة شفاقة استطاعت أن تحمل مضموناً إنسانياً جميلاً بذلك الربط اللبق الذي وحد بين

(١) الواضحات: البيض، عني بها أسنان مقدّمة الفم، والقلاص: جمع قلوص وهي الأنثى الشابة.

(٢) انكل: تبسم وأفرج ولمع البرق، واللهق: الأبيض، والمصاص: الممتلئ.

عناصر الطبيعة وبواعث الذات في شعر بدت الغرابة على بعض ألفاظه، لكنه لم يخل من اللّمسات الفنيّة العفوية المتمثلة بالتشبيه والاستعارة وصولاً إلى التعبير الذي ظلّ مقتصراً ولأسباب شكلية قاهرة على التمثيل الحسيّ الذي يحمل في معطياته رغم ذلك كلّ هموم الإنسان وتطلعاته.

ونختم حديثنا عن الصورة الشعرية عند عبيد بذكر عناصر جديدة في مكوّناتها تقوم على النظر الحسيّ والاستفادة من التأمّلات الذاتية التي غمّتها عنده التجارب، وأسبغت عليها بعداً إنسانياً يتعدّى عصره ليشمل كلّ العصور، يقول عبيد^(١).

وللمرء أيامٌ تعدُّ وقد رعت
حبالُ المنايا للفقى كلّ مرصد
منيته تجري لوقتٍ وقصره
ملاقاتها يوماً على غير موعده^(٢)
فمن لم يمّت في اليوم لا بدّ أنّه
سيملّقه حبلُ المنيّة في غد
فقلّ للذي يبغى خلاف الذي مضى
تبيّاً لأخرى مثلها فكان قد^(٣)

(١) ديوانه ص ٦٨.

(٢) قصره: غايته.

(٣) فكان قد: أي فكان قد تبيّاً.

فلنا ومن قد باد منا فكألذي

يسروح وكالقاضي البتات ليغتدي^(١)

ففي هذه الأبيات نلمح صورة التوجع الإنساني من الموت، هذا التوجع الذي أحسَّ عبيدٌ بوقعه وحاول أن يرسمه في أكثر أشعاره، عبر نصائح ومواعظ وخبرات لم يأل جهداً في تحميلها الصورة الصادقة والمضمون الغني الزاخر بكل الانفعالات والأبعاد، فالموت عند عبيد، كالموت عند طرفة من بعده، وليد تأملات أو خطرات فكرية، لكنه عند عبيد يمثل حكمة ناضجة وسعياً حثيثاً نحو اتباع لاحب الخير والصلاح، أدباً به إلى اتخاذ موقفٍ متزنٍ من الحياة والوجود، بينما هو عند طرفة هروبٍ من نهاية موجعة أدّى به إلى عبثٍ وجودي ابتعد به عن جوهر الحياة، وجعله يركن إلى مغريات الغرائز التي راح يعب منها ما استطاع متناسياً وجوده الفاعل والأصيل.

ولاشك فإن عبيداً قد وفق في رسم صورة مؤثرة للموت ولأشراكه المحيطة بالإنسان، وحمل الكلمات كل ما تستطيع حمله من الإيحاءات التعبيرية والشعورية.

تلك هي أهم الخصائص العامة المستخلصة من شعر عبيد الذي كان في مجمله شعراً جاهلياً التزم مقومات عصره الفنية، ولم يخرج عن النهج المرسوم الذي ظلت البيئة والقبلية تتحكمان في صنع أطره وحواشيه...

(١) البتات: الزاد، يريد كألذي يصنع زاده لیسافر في الغداة.

مجادع من شعره

در در الشبلب

«من الخفيف»

ليس رسمٌ على الدفين ببالي
فلوى ذروة فجنبي أثال^(١)
فالمرورة فالصحيفة قفر
كلٌ وادٍ وروضة محلال^(٢)
دارٌ حيٌّ أصابهم سالف الدهر
فأضحت ديارهم كالخلال^(٣)
مقفراتٍ إلا رماداً غبيّاً
وبقايا من دمنة الاطلال^(٤)
وأواريّ قد عفون ونؤياً
ورسوماً عرين مذّ أحوال^(٥)

(١) الرسم: ما بقي من آثار الدّار، والدفين: المدفون، واللوى: مسترق الرمل، أو ما مال منه، وذروة وأثال: موضعان.

(٢) المرورة: اسم مكان، وهي الأرض وشيء فيها، والصحيفة: الكتاب، وهي اسم مكان أيضاً، والمحلال: التي يحل بها الناس.

(٣) سالف الدهر: ما مضى منه، والخلال: أجفان السيوف.

(٤) الغيبي: المستور، والدمنة: آثار الأوساخ والقذارة.

(٥) الأواري: حلقة جبل تربط بها الدواب، والنزي: الحفير حول الخيمة.

بدلت منهم الذّيار نعاماً
خاضبات يُزجّين خيط الرُّئال^(١)

وظباء كأنهنّ أباريد
حقّ لجين تحنو على الأطفال^(٢)

تلك عرسي تروم قدماً زبالي
ألبين تريد أم لدلال^(٣)

إن يكن طُبُّك الدّلال فلو في
سالف الدّهر والليال الخوالي^(٤)

أنت بيضاء كالمهاة وإذ آ
تيك نشوان مرخياً أذيالي^(٥)

فاتركي مطّ حاجبك وعيشي
معنا بالرحاء والتّأمال^(٦)

(١) خاضبات: أكلن الربيع فاحمرت سوقهن، وزجّين: يسقن، والخيط: جماعة النعام، والرئال: أولاد النعام.

(٢) اللجين: الفضة، وتحنو: تعطف. شبه الظباء بأباريق الفضة لطلول أعناقها وبياضها.

(٣) الزّيال: المفارقة.

(٤) طبك: إرادتك، والخوالي: السابقة.

(٥) المهارة: البقرة الوحشية، والبلّورة، والشمس.

(٦) مطّ حاجبك: إرخاءهما غضباً.

أو يكن طَبُّكَ الزَّيَالُ فإن الـ
 بين أن تعطفي صدور الجمال^(١)
 زعمت أنني كبرتْ وأنني
 قلّ مالي وضمّن عني الموال^(٢)
 وصحا باطلاً وأصبحت كهلاً
 لا يؤاتي أمثالها أمثالي^(٣)
 إن رأيتني تغيّر اللون مني
 وعلا الشيب مفرقي وقذالي^(٤)
 فيما أدخل الخباء على مهـ
 ضومة الكشح طفلة كالغزال^(٥)
 فتعاطيت جيدها ثم مالت
 ميلان الكشيب بين الرمال^(٦)
 ثم قالت فدئ لنفسي
 وفداءً لمال أهلك مالي

(١) الين: الفراق، وتعطفي صدور الجمال: أي ترحلي ونجاي.

(٢) ضمّن: بخل، والموال: أبناء الأعمام.

(٣) صحا باطلاً: انكشف لك.

(٤) القذال: ما بين الأذنين من مؤخر الرأس.

(٥) المهضومة: الضامرة، والكشح: الخاصرة، والطفلة: الرخصة اللينة.

(٦) الجيد: العنق، والكشيب: التل من الرمل.

فإرفضي العاذلين واقني حياة
 لا يكونوا عليك حظاً مثالي^(١)
 وبحظّ مما نعيش فلا تذ
 هب بك الترهات في الأهوال^(٢)
 منهم ممسك ومنهم عديم
 وبخيل عليك في بخال^(٣)
 واتركي صرمة على آل زيد
 بالقطيّبات كنّ أو أورال^(٤)
 لم تكن غزوة الجياد ولم يُنذ
 قُب بآثارها صدور النعال^(٥)
 درّ درّ الشباب والشعر الأس
 ود والراتكات تحت الرحال^(٦)

(١) واقني حياة: أي الزمي الحياة، وحظ مثالي: أي أن العذال من نصيبه.

(٢) الترهات: أوباطيل.

(٣) المسك: البخيل.

(٤) الصرمة: القطيع من الإبل، والقطيّبات وأورال: موضعان.

(٥) يريد أنهم لم يغيروا ويقاتلوا في سبيل تلك الصرمة، ولم يسافر أحد من أجلي فتيل نعاله.

(٦) درّ درّ الشباب: أي أطل الله أيامه، وهنا يتذكر أيامه ويحنّ إلى شبابه، والراتكات: الإبل التي تعدو في سرها.

والعناجيج كالقداح من الشُّو
حط يحملن شُكَّة الأبطال^(١)

(١) العناجيج: الطوال الأعناق، والقداح: السهام، والشُّو حط: شجر تتخذ
منه القسيّ والسهام. والشكَّة: السلاح التام.

لمن الديار؟

«من الكامل»

يقف على ديار الأحباب يسائل عنها كأنه لا يعرفها، ويكي على قومه
الماضين.

لَمَنِ الدِّيَارُ بِبُرْقَةِ الرُّوحَانِ؟

دَرَسَتْ وَغَيَّرَهَا صُرُوفُ زَمَانٍ^(١)

فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي لِسُؤَالِهَا،

فَصَرَفْتُ وَالْعَيْنَانِ تَبْتَدِرَانِ^(٢)

سَجْمًا كَأَنَّ شُنَانَةَ رَجَبِيَّةَ

سَبَقَتْ إِلَيَّ بِمَائِهَا الْعَيْنَانِ^(٣)

(١) برقة الروحان: روضة باليهامة [البرقة حجارة ورمل أو حجارة وطبن، وكل لونين فهي برقة وتجمع على برق، ويقال جبل أبرق إذا كان فيه سواد وبياض وكساء أبرق إذا كان فيه سواد وبياض وحمرة وغير ذلك. وصروف الزمان تقلبه بأهله حالا بعد حال. والتصرف أيضاً تقلب الطائر جناحه أي إطارته إياهما. ومروى: درست لطول تراوح الأزمان].

(٢) تبتدران: أي تنهلان، تسيلان بالدمع.

(٣) السجم: الصب. الشنانة: السحابة تشن الماء أي تصبه. رجبية: منسوبة إلى شهر رجب، ويظهر أن سحائب رجب كانت عنهم غزيرة الماء. [سجماً صباً والسجم الصب. رجبية جاءت في رجب].

أَيَّامَ قَوْمِي خَيْرُ قَوْمٍ سُوقَةٍ
 لِمُعْصَبٍ وَلِبَاسٍ وَلِعَانِي^(١)
 وَلِنِعْمَ أَيْسَارُ الْجَزُورِ إِذَا زَهَتْ
 رِيحُ الشَّتَاءِ، وَمَأْلَفُ الْجِيرَانِ^(٢)
 أَمَا إِذَا كَانَ الطُّغْآنُ فَإِنَّهُمْ
 قَدْ يَخْضِبُونَ عَوَالِي الْمُرَانِ^(٣)
 أَمَا إِذَا كَانَ الضُّرَابُ فَإِنَّهُمْ
 أَسَدٌ لَدَى أَشْبَالِهِنَّ خَوَانِي
 أَمَا إِذَا دُعِيَتْ نَزَالٌ، فَإِنَّهُمْ
 يَحْبُونَ لِلرُّكَبَاتِ فِي الْأَبْدَانِ^(٤)

-
- (١) المعصب: الذي يعصب بطنه ليمسك جوعه. [يقول كان في أيام قومي .
 وقوله سوقة قال أبو عمرو: الناس كلهم سوقة إلا من كانت في يديه شعبة
 من سلطان. والمعصب الذي يعصب على بطنه الحجر من الجوع].
 (٢) الأيسار: الذين يضربون بقداح الميسر لتقسيم الجزور. زهت: هبت. مألف
 الجيران: أي أن قومه يألّفهم الجيران، لكرمهم [الأيسار الذين يضربون
 بالقداح يقامرون وينحرون الجزر ويطعمونها واحدهم يسر. وقوله إذا
 زهت ريح الشتاء يقول إذا ارتفعت].
 (٣) عوالي المران: الرماح [واحدة العوالي عالية وهي دون السنان بشبر أو ذراع
 حيث يعقد اللواء. والمران القنا].
 (٤) دعيت نزال: أي دعوا إلى الحرب. يحبون: يزحفون.

فَخَلَدْتُ بَعْدَهُمْ وَلَسْتُ بِخَالِدٍ
 فَالذَّمُّ ذُو غَيْرِ وَذُو الْوَانِ
 اللَّهُ يَعْلَمُ مَا جَهِلْتُ بِعَقِبِهِمْ
 وَتَذَكَّرِي مَا فَاتَ أَيُّ أَوَانٍ^(١)

(١) يعقبهم: أي بعد مجيء بعضهم.

للنمرء أيام تعد

«من الطويل»

يبدأ هذه القصيدة بالمساءلة عن دمنة سعدة ثم يتغزل بامرأة اسمها سعدة، ويشبها بالمهاة، ثم يصف المهاة، ويعود بعد ذلك إلى سعدة، ويعد أن يفتخر بعفته وحلمه وحسن رأيه ينصرف إلى الحكم، وينهي قصيدته بها. وهذه القصيدة تعد من مجمرات العرب.

لِمَنْ دِمْنَةٌ أَقَوْتُ بِحَرَّةٍ ضَرْغِدِ
تَلُوحُ كَعُنُوانِ الْكِتَابِ الْمُجَدِّدِ^(١)
لِسَعْدَةٍ إِذْ كَانَتْ تُشِيبُ بِوُدِّهَا
وَإِذْ هِيَ لَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِأَسْعَدِ^(٢)
وَإِذْ هِيَ حَوْرَاءُ الْمَدَامِخِ طِفْلَةً
كَمِثْلِ مَهَاةٍ حُرَّةٍ أُمِّ فَرْقَدِ^(٣)

(١) الدمنة: آثار الدار. أقوت: خلت. حرة ضرغد: مكان. وقوله: تلوح الخ... يريد به تداول الرياح لها فحيناً تسترها بالتراب، وحيناً تكشفه عنها فتبين كأنها مجددة.

(٢) تشيب: تجازي.

(٣) الحوراء: هي التي اشتد بياض بياض عينيها وسواد سوادهما. الطفلة: الرخصة الناعمة. المهاة: البقرة الوحشية تشبه بها النساء لحسن عينيها. الحرة: الكريمة. الفرقد: ولد البقرة الوحشية.

تُرَاعَى بِهِ ثَبَتَ الْخَمَائِلِ بِالضُّحَى
وَتَأْوِي بِهِ إِلَى أَرَاكِ وَغَرْقَدٍ^(١)
وَتَجْعَلُهُ فِي سِرْبِهَا نُصَبَ عَيْنِهَا
وَتَنِي عَلَيْهِ الْجَيْدُ فِي كُلِّ مَرْقَدٍ^(٢)
فَقَدْ أَوْرَثَتْ فِي الْقَلْبِ سُقْمًا يَعُودُهُ
عِيَادًا كَسَمِّ الْحَيَةِ الْمُتَرَدِّدِ
غَدَاةَ بَدَتْ مِنْ سِتْرِهَا، وَكَأَنَّمَا
تُحَفُّ ثَنَائِيهَا بِحَالِكِ إِثْمِدٍ^(٣)
وَتُبْسِمُ عَنْ عَذْبِ اللَّثَاتِ كَأَنَّهُ
أَقَاخِي الرَّبِّي أَضْحَى وَظَاهِرُهُ نَدٍ^(٤)
فَلِنِّي إِلَى سُغْدَى وَإِنْ طَالَ نَأْيُهَا
إِلَى نَيْلِهَا مَا عِشْتُ كَالْحَائِمِ الصَّدِي^(٥)
إِذَا كُنْتُ لَمْ تَعْبَأ بِرَأْيِي وَلَمْ تُطْعِ
لِنُصْحٍ وَلَا تُضْغِي إِلَى قَوْلِ مُرْشِدٍ

(١) الضمير في به: الفرقد. الأراك والفرقد: نوعان من الشجر.

(٢) السرب: القطيع.

(٣) الإثمِد: الكحل، وكان من عادة نساء العرب أن يرششنه على لثامهن ليبين
نصوع بياض أسنانهن.

(٤) اللثات، الواحدة لثة: ما حول الأسنان من اللحم عند مغارزهن.

(٥) الحائم والصدى: العطشان.

فَلَا تَنْتَفِي ذَمُّ الْعَشِيرَةِ كُلِّهَا،
 وَتَذْفَعُ عَنْهَا بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ
 وَتَصْفَحُ عَنْ ذِي جَهْلِهَا وَتَحُوطُهَا،
 وَتَقْمَعُ عَنْهَا نَخْوَةَ الْمُتَهَدِّدِ
 وَتَنْزِلُ مِنْهَا بِالْمَكَانِ الَّذِي بِهِ
 يُرَى الْفَضْلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْمُتَحَمِّدِ
 فَلَسْتَ، وَإِنْ غَلَّتْ نَفْسُكَ بِالْمُنَى،
 بِذِي سُودِدٍ بَادٍ وَلَا كَرْبٍ سَيِّدٍ^(٥)
 لَعَمْرُكَ مَا يَخْشَى الْخَلِيطُ تَفْحُشِي
 عَلَيْهِ وَلَا أَنْأَى عَلَى الْمُتَوَدِّدِ^(٦)
 وَلَا ابْتَسَفِي وَدَّ امْرِئٍ قَلَّ خَيْرُهُ،
 وَلَا أَنَا عَنْ وَصْلِ الصَّدِيقِ بِاصْيَدٍ^(٧)
 وَإِنِّي لِأُطْفِئِ الْحَرْبَ بَعْدَ شُبُوبِهَا
 وَقَدْ أَوْقَدْتُ لِلْغَيِّ فِي كُلِّ مَوْقِدٍ
 فَأَوْقَدْتُهَا لِلظَّالِمِ الْمُضْطَلِّي بِهَا،
 إِذَا لَمْ يَزْعُهُ رَأْيُهُ عَنْ تَرَدُّدٍ^(٨)

(١) الكرب: المشقة. وفي الأصل بضم الكاف ولم نجد لها في المعاجم، وهي في شعراء النصرانية بالفصح.

(٢) الخليط: الجار، والصاحب، والعشير.

(٣) الاصيد: الذي يرفع رأسه تكبراً.

(٤) يزعه: يكفه، يمنعه.

وَأَغْفِرُ لِلْمَوْلَى هِنَاةً تُرِيْبُنِي،
 فَأَظْلِمُهُ مَا لَمْ يَنْتَلِنِي بِمَحْقِدِي ^(١)
 وَمَنْ رَامَ ظُلْمِي مِنْهُمْ فَكَأَنَّمَا
 تَوَقَّصَ جِينًا مِنْ شَوَاهِقِ صِنْدِدِ ^(٢)
 وَإِنِّي لَذُو رَأْيٍ يُعَاشُ بِفَضْلِهِ،
 وَمَا أَنَا مِنْ عِلْمِ الْأُمُورِ بِمُبْتَدِي
 إِذَا أَنْتَ حَمَلْتَ الْخَوْفَ أَمَانَةً،
 فَإِنَّكَ قَدْ أَسْنَدْتَهَا شَرُّ مُسْنَدٍ
 وَجَدْتُ خَوْفَ الْقَوْمِ كَالْعُرَى يُتَقَى،
 وَمَا خِلْتُ غَمَّ الْجَارِ إِلَّا بِمُعْهَدِي ^(٣)
 وَلَا تُظْهِرَنَّ حُبَّ امْرِئٍ قَبْلَ خَبْرِهِ،
 وَبَعْدَ بَلَاءِ الْمَرْءِ فَادْمُمُ أَوْ أَحْمَدِ
 وَلَا تَتَّبِعَنَّ رَأْيَ مَنْ لَمْ تَقْصُهُ،
 وَلَكِنْ بِرَأْيِ الْمَرْءِ ذِي اللَّبِّ فَاقْتَدِ ^(٤)

(١) المولى: الصاحب الجار وابن العم الخ . . .

(٢) التوقص: شدة الوطء في المشي، فكأن الماشي هكذا يقص ما تحته. ولعل المراد هنا كأنه يسقط من أعالي صندد، وهو جبل بتهامة، فيقص عنقه أي يكسرها.

(٣) العر: الحرب. المعهد: المكان المعهود به الشيء.

(٤) تقصه، من قص خبره: تتبعه شيئاً فشيئاً، والمراد هنا: تختبره.

وَلَا تَزْهَدَنَّ فِي وَضَلِ أَهْلِ قَرَابَةٍ
 لِذُخْرِ وَفِي وَضَلِ الْأَبَاعِدِ فَازْهَدِ
 وَإِنْ أَنْتَ فِي مَجْدٍ أَصَبْتَ غَنِيمَةً،
 فَعُدْ لِلَّذِي ضَادَفَتْ مِنْ ذَاكَ وَازْدَادِ
 تَزَوُّدٌ مِنَ الدُّنْيَا مَتَاعاً فَإِنَّهُ
 عَلَى كُلِّ حَالٍ خَيْرٌ زَادِ الْمُزَوِّدِ
 تَمَنَّى مُرْيِءُ الْقَيْسِ مَوْتِي، وَإِنْ أَمْتُ
 فَتِلْكَ سَبِيلُ نَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدٍ^(١)
 لَعَلَّ الَّذِي يَرْجُو رَدَائِي وَمَيِّتَتِي
 سَفَاهاً وَجُبْناً أَنْ يَكُونَ هُوَ الرَّدِّي
 فَمَا عَيْشُ مَنْ يَرْجُو هَلَاقِي بِضَائِرِي،
 وَلَا مَوْتُ مَنْ قَدْ مَاتَ قَبْلِي بِمُخْلِدِي
 وَلِلْمَرْءِ أَيَّامٌ تُعَدُّ وَقَدْ رَعَتْ
 جِبَالُ الْمَنَاسِبِ لِلْفَتَى كُلَّ مَرْصِدِ
 مَنِيَّتُهُ تَجْرِي لَوْقَتٍ، وَقَصْرُهُ
 مُلَاقَاتُهَا يَوْمًا عَلَى غَيْرِ مَوْعِدِ^(٢)

(١) امرؤ القيس: هو ابن حجر الكندي الشاعر، صغر اسمه احتقاراً له لأنه

كان يهدد بني أسد قوم عبيد الذين قتلوا أباه.

(٢) قصره: غايته.

فَمَنْ لَمْ يَمُتْ فِي الْيَوْمِ لَا بُدَّ أَنَّهُ
سَيُعْلَقَهُ حَبْلُ الْمَنِيَةِ فِي غَدٍ
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى:
تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَأَنَّ قَدْ^(١)
فَإِنَّا وَمَنْ قَدْ بَادَ مِنَّا فَكَأَلَّذِي
يَرُوحُ وَكَالْقَاضِي الْبَتَّاءِ لِيُغْتَدِي^(٢)

(١) فكان قد: أي فكان قد تهيأ.

(٢) البتات: الزاد، يريد كالذي يصنع زاده ليسافر غدوة.

لا يبلغ الباقي ما بنينا

«من مجزوء الكامل المرفل»

ياذا المخوفنا بقتل إبيه إذلاًّ وحيناً^(١)
أزعمت أنك قد قتلت سرائنا كذباً وميناً^(٢)
هلاًّ على حجرين أمّ قطام تبكي لا علينا^(٣)
إنّا إذا عضّ الثقات برأس صعدتنا لونا^(٤)
نحمي حقيقتنا وبعض القوم يسقط بين بيننا^(٥)
هلاًّ سألت جموع كندة يوم ولّوا أين أيننا^(٦)
أيام نضرب هامهم ببواتر حتى انحنينا^(٧)

(١) الحين: الإهلاك، والمحنة.

(٢) السراة: السادة، والمين: الكذب.

(٣) حجرين أم قطام: والد امرئ القيس الشاعر.

(٤) الثقات: آلة تقوم بها الرماح، والصعدة: الرمح، ولونا: لعله من لوى
فلاناً حقّه: أي جحدّه إياه.

(٥) الحقيقة: ما يدافع عنه من شرف وعرض ومال، ويسقط بين بيننا: أي
يتساقط ضعيفاً لا يعتدّ به.

(٦) ولّوا: هربوا.

(٧) البواتر: السيوف القاطعة.

وجموع غسان الملوك أتيتهم وقد انطوينا^(١)
 لحقاً أياطلهنّ قد عاجن أسفاراً وأينا^(٢)
 ولقد صلقنا هوازناً بنواهل حتى ارتوينا^(٣)
 نعليهم تحت الضباب المشرقي إذا اعتزينا^(٤)
 نحن الأولى بجمع جموعاً ثم وجههم إلينا^(٥)
 واعلم بأن جياننا آلين لا يقضين ذبنا^(٦)
 ولقد أبحننا ما حمت ولا مبيع لما حميننا
 هذا ولو قدرت عليك رماح قومي ما انتهينا
 حتى تنوشك نوشة عاداتهنّ إذا انتوينا^(٧)
 نغلي السباء بكل عاتقة شمول ما صحونا^(٨)

(١) انطوينا: أي من الضمرة، والضمير في انطوينا يعود على الخيل في البيت الذي بعده.

(٢) اللّحق: الضامرة، والأياطل: جمع أبطل وهو الخصر، والأيّن: التعب والإعياء.

(٣) صلقن: ضربن، والنواهل: العطاش.

(٤) الضباب: يريد غبار الحرب، والمشرقي: السيف، والاعتزاء: الانتساب إلى القبيل عند الضرب.

(٥) قال أبو الوليد: يروى: نحن الأولى فاجع جموعك.

(٦) آلين: أقسمن.

(٧) تنوش: تتناول، وانتوينا: التحقنا وأتيناهم من بعد.

(٨) السباء: الخمر، والعاتقة: الرّزق الواسع، والشمول: الخمر، سميت شمولاً لأن، ربحها تشمل القوم إذا فتحت وضبت.

ونهن في لذاتها عظم التلاد إذا انتشينا^(١)
لا يبلغ الباني ولو رفع الدعائم، ما بنينا
كم من رئيس قد قتلناه وضميم قد أبينا^(٢)
ولرب سيد معشر ضخم الدسيعة قد رمينا^(٣)
عقبائه بظلال عقبان تيمم ما نونا^(٤)
حتى تركنا شلوه جزر السباع وقد مضينا^(٥)
وأوانس مثل الدمي حور العيون قد استبينا^(٦)
إننا لعمرك لا يضام حليفنا أبداً لدينا

(١) التلاد: المال الموروث، وانتشينا: شربنا.

(٢) الضميم: الذئ والظلم.

(٣) الدسيعة: الجفنة والجرة، كناية عن كرمه، ورمينا: قتلنا.

(٤) تيمم: تقصد.

(٥) الشلو: العضو، وجزر السباع: أي طعاماً للسباع.

(٦) الأوانس: اللواتي يأنسن في الحديث، يريد الفتيات، والدمي: يريد

الفتيات، شبه الأوانس بالدمي، وهي لعب مزينة، أو صورة منقشة

وحور العيون: أي التي فضل سوادها بياضها، واستبينا: أي جعلناها

أسيرة.

الخاتمة

بعد أن ألقينا نظرة متأنية على حياة عبيد بن الأبرص، وما أثر عنه من شعر، نعود لنؤكد هنا أنّ ذلك الشعر يمثل بداية متقدمة للشعر العربي الذي تطوّر فيها بعد، فاتسعت أساليبه، وتعدّدت روافده الفكرية والثقافية والبنائية بفعل الاحتكاك والانتشار اللذين وسّعا المدارك والآفاق.

وليس قولنا إن شعر عبيد يمثل بداية للشعر العربي يعني أنه كان شعراً ضعيفاً أو خالياً من العناصر الفنية المكوّنة، فهو ليس كذلك إطلاقاً، بل إن ما نعنيه هو أنّ تلك المرحلة تمثل في نظرنا بداية لمرحلة متطورة سبقتها محاولات كثيرة استطاعت أن تصل بالشعر العربي إلى مرحلة متقدمة سواء في النوعية أو الكمية، وكلّ مقومات الشعر البدائي الأصيل الذي خلا من التعقيد والضعف، واستطاع أن ينقل إلينا ببساطة فيها الجزالة والمتانة ومشاعر وجدانية، وتفاصيل اجتماعية وفكرية.

وإذا كان شعر عبيد في معظمه شعراً قَبلياً فإن ذلك لا يضره ولا يقلل من أهميته، لأنّ عبيداً وغيره من شعراء ذلك العصر، وجدوا في القبيلة الوطن والأمة والوجود والذات،

ولذلك كان شعرهم في موضوعاته المختلفة لا يتجاوز إلا قليلاً حدود ذلك الفهم الذي راحوا يصوّرونه ويسبقون عليه المشاعر التي لم تخلُ من الحرارة والرّخم المتولّدين عن الانفعال التام والصدق الحقيقي، كما أن عبيداً احتفظ لنفسه في ذلك الشعر بنوع من حرّية الحركة المتمثلة بالشعر الذّاقي الذي استطاع من خلاله أن يتغلّت من ذلك الإسار، ليعبر عن أبعاد فكرية تتناول الوجود والمصير، وتجارب إنسانية حافلة بالحكمة والرؤى والتأملات.

وبعد، فإننا في هذه الدراسة المتواضعة لعبيد وشعره، نرجو أن نكون قد أسهمنا قدر الإمكان في الكشف والإبانة عن جوانب أصيلة في تلك الشخصية وذلك الشعر، وحقّقنا الغاية التي توخّينا أن تكون شاملة في الاستقصاء والدرس والتحليل.

فهرس المصادر والمراجع

- * ابن الأبرص - عبيد - ديوانه - دار صادر.
- * ابن خلدون - المقدمة - دار الهلال.
- * ابن عبد ربّه - العقد الفريد - دار الكتب العلميّة.
- * ابن قتيبة - الشعر والشعراء - دار الكتب العلميّة.
- * ابن منظور - لسان العرب - دار صادر
- * الابشيهي - المستطرف من كل فنٍ مستظرف - دار الكتب العلميّة.
- * الاصبهاني «أبو الفرج» - الأغاني - طبعتي بولاق، وساسي.
- * الألوسي محمود شكري - بلوغ الأرب - دار الكتب العلميّة.
- * البكري - معجم ما استعجم - طبعة السّقا.
- * الجاحظ - البيان والتبيين - دار الكتب العلميّة.
- * الجاحظ - الحيوان - دار الهلال.
- * الجحامي - محمد بن سلام - طبقات الشعراء - دار الكتب العلميّة.
- * حاوي - إيليا - النابغة الذبياني - دار الثقافة.
- * حسين - طه - في الأدب الجاهلي - دار المعارف.

* الرافعي - مصطفى صادق - تاريخ أداب العرب - دار الكتاب العربي.

* الزركلي - فهرس الأعلام - دار العلم للملايين.

* الزوزني - المعلقات السبع - دار الثقافة.

* زيدان - جرجي - تاريخ أداب اللغة العربية - دار مكتبة الحياة.

* شيخو - لويس - شعراء النصرانية - ط ١٩٢٦.

* ضيف شوفي - العصر الجاهلي - دار المعارف.

* ضيف شوفي - في النقد الأدبي - دار المعارف.

* العشماوي - محمد زكي - النابغة الذبياني - دار المعارف.

* عطوان - حسين مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي - دار المعارف.

* علي - جواد - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - دار العلم للملايين.

* القالي - أبو علي - الأمالي - دار الكتب العلمية.

* القرشي - أبو زيد - جمهرة أشعار العرب - دار المسيرة.

* قميحة - مفيد - المعلقات العشر دراسة وتحليل - دار العلوم العربية.

* الفيرواني - ابن رشيق - العمدة في صناعة الشعر ونقده - دار الكتب العلمية.

- * نالينو - كارلو - تاريخ الآداب العربية - دار المعارف .
- * نصار - حسين - ديوان عبيد بن الأبرص - تحقيق - مطبعة الحلبي .
- * اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - دار صادر .

فهرس الموضوعات

٣	مقدمة
٥	العصر الجاهلي - معارفه وأدابه
٢٠	عبيد بن الأبرص - حياته
	أ - السيرة التاريخية
	ب - السيرة الأدبية
	ج - السيرة الشخصية
٣٧	الأغراض الشعرية
٣٩	أ - الشعر
٤٨	ب - الفخر
٦٤	ج - الوصف
٧٧	د - الحكمة وأغراض أخرى
٨٦	المعلقة - شرحها
٩٥	المعلقة - تحليلها
١٠٧	الخصائص العامة لشعر عبيد «دراسة فنية»
١٢٧	نماذج من شعره
١٤٧	الخاتمة
١٤٩	ثبت المصادر والمراجع